أبحاث ندوة عمارة المساجد، م ١ أ، ص ص ١-٣٤، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م)

الحرمان الشريفان : توطئة لنشوئهما وتوسعهما وتأثيرهما على محيطهما العمراني على مر العصور

محمد بن عبد الله بن صالح

قسم العمارة وعلوم البناء، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود

الرياض، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث: لقد أكرم الله سبحانه وتعالى هذه البلاد الطاهرة بوجود الحرمين الشريفين. ففي وادٍ غير ذي زرع. رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أساس البيت العتيق بمكة قِبْلَةّ المسلمين، وفيها أنزلت أهم الرسالات السماوية. وفي المدينة النبوية مسجد أشرف الأنبياء والمرسلين الذي انطلق منه الدين الإسلامي متوجاً بالشريعة الإسلامية الغراء إلى كافة أرجاء المعمورة. وإلى الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى تهوي أفئدة المسلمين من كل بقاع الأرض. وقد وضع الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون لمن بعدهم مبادئ وأسس العناية باعمار وتوسعة وإدارة شئون الحرمين الشريفين على وجه الخصوص والمساجد على وجه العموم . وبذلك أصبح الحرمان الشريفان وثالثهما القدس الشريف أهم البقاع الإسلامية على وجه الأرض يحرص على العناية بها، وبعمارتها، وتوسعتها، وإدارة شئونها كل من ولي أمر المسلمين.

إن مسألة توثيق أهم مؤسسات الأمة الإسلامية الدينية وخاصة عمارة الحرمين الشريفين لا يعني تسجيل إعمارهما المادي فقط بل المعنوي المرتبط بمكانتهما في قلب كل مسلم، لأنهما النبراس الحضاري الذي ينتظم به عقد الأجيال المسلمة عبر القرون، والسداة التي تلتحم بها مختلف فئات الشعوب الإسلامية في حلقات مترابطة وصفوف متراصة، وذلك لما لوجودهما من عمق تاريخي وامتداد جغرافي للعالم الإسلامي.

[illegible] توطئة إلى فتح آفاق جديدة تكمن وراء عمارة الحرمين الشريفين وإعداد مرجع تخصصي يكون في متناول الجميع [illegible] طريق جمع مادة علمية مفصلة من مصادرها الأساسية وتوثيقها بطريقة منهجية منظمة، وتصنيفها وفق قواعد [illegible] جاعها والاستفادة منها كمصدر أساسي للبحوث والدراسات العلمية المستقبلة.

المقدمة

الحرمان الشريفان هما المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة ،خصهما الله سبحانه وتعالى مع المسجد الأقصى في القدس بالفضل على بقاع الأرض ووعد من حج البيت الحرام وزار المسجد النبوي وصلى به وسلم على رسوله ﷺ وصاحبيه وزار وصلى بالمسجد الأقصى بالقدس بوافر المثوبة وجزيل العطاء. ولهذا تنقاد قلوب المؤمنين إلى المساجد الثلاثة رغبة في تطهير الأفئدة وإقرار العيون وبث الفرح في النفوس عندما تعانق جوانحهم أجواء هذه الأماكن الطاهرة.

الحرم المكي الشريف الطاهر ومسرى الرسول ﷺ إلى المسجد الأقصى، فيه الكعبة المشرفة قبلة المسلمين وأول بيت وضع للناس خصه الله سبحانه وتعالى بما لم يخصّ به غيره من المساجد فيما سواه وهو الحرم الآمن.[١] والحرم النبوي الشريف، مسجد الرسول ﷺ، به الروضة الشريفة، خصه الله سبحانه وتعالى بما لم يخصّ غيره سوى المسجد الحرام.[٢] المسجد الأقصى المكان الذي أُسري إليه المصطفى ﷺ وصلى فيه[٣] ، ثم عرج به إلى السماء وفيه الصخرة التي عندها مربط البراق. هذه المساجد الثلاثة لها من الخصوصية و المكانة ما يجعل إعمارهما المعنوي بالحج والعمرة والزيارة،والمادي بالبناء والتجديد والصيانة والإدارة، قربة إلى الله سبحانه وتعالى.

أولى الكثير من ولاة أمر المسلمين من الخلفاء والسلاطين والأئمة والملوك الحرمين الشريفين جل اهتمامهم بالتطوير والتوسعة والصيانة والنظافة والإدارة بما يليق بمكانتهما وأهميتهما لكل مسلم ومسلمة في كل مكان، لمواكبة الزيادة المطردة في أعداد الحجاج والمعتمرين والزائرين والمجاورين وذلك لتسهيل عمليه تأدية الشعائر الدينية والإحساس بقوة سلطان المسلمين وترابطهم أينما كانوا ومن حيث أتوا. وتأتي مشاريع توسعاتهما عبر التاريخ على التأثير على محيطهما العمراني، خلافاً لما اعتادته كثير من المشاريع ذات الطابع التوسعي من تأثير المحيط العمراني على المبنى أو مجموعة المباني وذلك بدءاً بتوسعة المصطفى ﷺ لمسجده الشريف في المدينة المنورة في العام السابع الهجري ومتوجة بتوسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله تعالى للمسجد الحرام.

تمثل عمارة الحرمين الشريفين على مر العصور إنجازات مادية للتراث الإسلامي المتجدد النابع من منابع لا تنضب هي القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع المسلمين. كما تعتبر دليلاً حسياً على ترابط وتكامل ونضج المجتمع المسلم. فما من أمة تسعى لاستمرار تطورها إلا أولت مختلف مؤسساتها الحضارية جل اهتمامها من إعمار وإصلاح وإدارة وحماية، فالعناية بالحرمين الشريفين وإظهارهما بالمظهر المشرف تعبير عن صدق وعمق العلاقة الحميمة بين الأمة الإسلامية وتراثها. وإذا كانت مشاريع الحرمين الشريفين قد مرت بمراحل تطور مختلفة فإن السعي إلى توثيقها كأهم إنجازات الأمة الإسلامية يصبح أمراً ملحاً حتى لا تنقطع الصلة بين الماضي والحاضر، وحتى لا يغيب إنجاز هذين المسجدين المأثورين عن منتدى الحياة العلمية الحاضرة والمستقبلة.

إن من أهم ما يميز الحرمين الشريفين ومحيطهما كونهما بقعتين طاهرتين تجتمع فيهما ملايين الأنفس البشرية على اختلاف الأجناس والأعمار وعلى قلب واحد يتضرعون إلى العلي القدير أن يتقبل منهم مناسكهم. يميز عمارة الحرمين الشريفين أنها تنطلق من ثوابت لا يمكن المساس بها خلافَ أي مبنى آخر على وجه البسيطة . لذا فان كل

---

١ روى ابن ماجة في سننه (١٣٩٦) أن الرسول ﷺ قال "صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه"

٢ روى البخاري في صحيحه (١١١٦) عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال"الصلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام".

٣ "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير "[الإسراء،آية١] روى الأمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك (١٢٠٤٧) ... ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ... "

محاولة لتوسعة أي منهما يأتي مؤثراً على محيطهما العمراني، حيث يعتبر كل منهما حالة فريدة لا تتكرر. إن غنى وغزارة مأثورات الثقافة الإسلامية المتجددة ممثلة بالتراث الإسلامي يجعل من نفحاته عمارة ذات طبيعة نفعية أهم شواهدها عمارة الحرمين الشريفين المعنوية والمادية. فالشواهد المعمارية وخاصة التي أبقيت من العمارة العثمانية، والتوسعات التي أضيفت لها منذ بداية العهد السعودي دليل مادي على ذلك. وبما أن عمارة الحرمين الشريفين هي عمارة ولاة الأمر فمن المؤكد أن الممارسة وُظِّفت بشكل أفضل بمشورة العلماء والاستعانة بأرباب العمل المخلصين من العمال المهرة والمهندسين . وبذلك أصبحت عمارة الحرمين الشريفين بكل محتوياتها وثيقة تاريخية وشاهدا من الشواهد على الإنجاز الكبير تفرض بحق التوثيق والدراسة والبحث والاستنتاج.

إن إعداد هذه الدراسة يعد توطئة للعديد من الدراسات التي تليها عن عمارة الحرمين الشريفين . وقد بذل المؤرخون أمثال الأزرقي وابن شبة والفاسي والسمهودي وباسلامة والكردي وغيرهم الجهد في توثيق عمارة الحرمين الشريفين.[١-٣٠] ، وما هذه الدراسة إلا مشاركة متواضعة تضاف إلى الجهد والاهتمام المتنامي بالحرمين من مختلف القطاعات الرسمية والأهلية في المملكة حيث وضع كل منهم ركيزة بحثية للمهتمين بعمارة الحرمين الشريفين من مختلف مؤسسات الدولة الإسلامية على مر العصور. وتقع مهمة توثيق الإنجازات العمرانية والمعمارية للحرمين الشريفين في الوقت الحاضر على عاتق المتخصصين من المؤرخين، والمعماريين، والمهندسين، والمخططين، والمنظرين، وعلماء الاجتماع والنفس، والاقتصاد والسياسة والإدارة الضليعين بهذه المواضيع والقادرين على الحديث عنها من واقع خبرة وتجربة ومن خلال الرؤية العلمية الصحيحة.

سوف تحاول هذه التوطئة وضع منهجية لترجمة وتوثيق تاريخ تطور عمارة الحرمين الشريفين والبيئة العمرانية المحيطة بهما على مر العصور ، وتشتمل على سلسلة متكاملة من الأبحاث والصور والرسومات التي تم تحرى الدقية فيها لتكوين صورة شكلية عمرانية للمكان على اختلاف الأزمان. فعند دراسة وتوثيق النواحي والإنجازات المعمارية للحرمين الشريفين يتبادر إلى الذهن أن ما تتميز به عمارتها من الأنظمة الهندسية على اختلاف أنماطها، والفنون المعمارية المستخدمة فيهما وكذلك طاقتهما الاستيعابية من البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأعمارهم وثقافاتهم التي لا تتكرر في أي بقعة من الأرض ، لا يتعدى كونه خطوة أولية لسلسة من الأبحاث والدراسات التي تحتاج إلى توضيح وتمحيص. فمثلا عند التركيز على دراسة معينة من النواحي الإنسانية أو الجمالية أو الجوانب الفنية للتصميم الخاص بالحرمين الشريفين يُقصد منه، بالإضافة إلى التوثيق المادي، اجتذاب القارئ ودفعه إلى التوغل في أعماق ومدلولات الثقافة والعمارة الإسلامية التي تعد جزءًا لا يتجزأ من محاولة الإلمام بأسرار وتطور هذين الكيانين العظيمين. وسوف تحرص هذه السلسلة من البحوث على تقديم المعلومات بأسلوب يرفع وينمي هذا الجانب من جوانب المعرفة الإنسانية.

فمنهجية البحث محاولة جادة لتتبع الموضوع دينياً وتاريخياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً ومعمارياً وتقنيا، ورصد ما يتعلق به من معارف تراثية من أجل الربط بين الماضي بالحاضر، وكذلك بين الحرمين الشريفين وبقية أرجاء العالم الإسلامي.

الأهداف

إن الهدف العام لهذه التوطئة هو تحديد جوانب المعارف عند دراسة وتوثيق عمارة الحرمين الشريفين والتراث المادي لهما. ومنها تنبثق الأهداف المحددة التالية:

أ - تسليط الضوء على دور التوسعات للحرمين الشريفين على مر العصور في استيعاب الأعداد المطردة من المستخدمين.

ب - دراسة العلاقة المتبادلة الفريدة بين الحرمين الشريفين والبيئة المحيطة بهما ممثلة بمراكز مدينتي مكة المكرمة والمدينة المنورة.

جـ - دراسة وتوثيق أساليب التصاميم المعمارية والهندسية للحرمين الشريفين والنواحي العمرانية المواكبة لهما والعناية بذكر سير وترجمات من قام بتمويل وتصميم وعمارة الحرمين الشريفين من مهندسين وفنانين وصناع مهرة منذ خليل الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام حتى وقتنا الحاضر.

د - دراسة وتوثيق التقنيات والمهارات والأدوات ومواد البناء المستخدمة في عمارة الحرمين الشريفين.

هـ - دراسة وتوثيق أنماط وسلوك زوار الحرمين الشريفين من الحجاج والمعتمرين من كافة أرجاء العالم.

و - سرد الدروس المستفادة من إنجازات التوسعات للحرمين الشريفين على مر العصور خدمة لأي توسعات مستقبلية أو حلاً لمشكلة معينة .

ز - مناقشة الحاجة للتوسع مستقبلا ومدى إمكانية ذلك للحرمين الشريفين بناءاً على المعطيات المادية لمحيطهما العمراني.

مشتملات التوطئة ومنهجيه البحث

المبدأ الذي يقوم عليه تطوير التوطئة لتحقيق الأهداف السابقة هو أن تكون شاملةً ما أمكن, والذي يستمد أفكاره من تطور عمارة الحرمين الشريفين, وتأثيرهما على محيطهما العمراني على مر العصور, وربطها بالثقافة العربية والثقافة الإسلامية اللاحقة لها التي صنعتهما بحيث تشمل هذه الجوانب ولا تقتصر على الجوانب التالية:

١- الجانب التاريخي : Historical Background

تُعنى بجمع وتحليل المعارف التاريخية التي يطلقها عامة الباحثين على مختلف مراحل تطور ونمو الحرمين الشريفين.

٢- جانب التخطيط الإقليمي والعمراني : Regional and Urban Planning

تختص بدراسة تطور العلاقة المتبادلة بين الحرمين الشريفين من جهة والبيئة الإقليمية والمحلية والعمرانية المحيطة بهما ضمن كل من العالم الإسلامي والجزيرة العربية وإقليم مكة المكرمة والمدينة المنورة من جهة أخرى.

٣ – جانب التصميم العمراني : Urban Design

تعنى بالتشكيلات العمرانية لعناصر التصميم الحضري في كل مرحلة من مراحل التوسعات ومدى تكيف تصميم العناصر وتكاملها على اختلاف أهدافها مع احتياج الحجاج والمعتمرين والزائرين والمجاورين.

٤ – الجانب المعماري : Architectural Design

تهتم بتطور مفهوم العمارة لمخططات الحرم المكي الشريف من الناحية المعمارية ممثلة بعناصره الثابتة (الكعبة، المطاف ، الحجر الأسود، الركن اليماني ، مقام إبراهيم، بئر زمزم، المسعى) وبعناصره المتغيرة (بوابات ومنارات وساحات وأروقة الحرم، وخدماته كوسائل الانتقال إلى مستوياته المختلفة من سلالم ومصاعد ودرج متحرك، دورات المياه، خدمات الأمن).

كما تهتم هذه المقالة بمفهومية تطوير مخططات الحرم النبوي الشريف من الناحية المعمارية أيضا ممثلة بعناصره المعمارية الثابتة (الروضة الشريفة بمحرابها ومنبرها، الصفة، قبر الرسول ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أساطين الحرم خاصة التي حدد أماكنها الرسول ﷺ وعناصره المتغيرة (الأروقة ، المنارات، البوابات، الساحات وخدمات. كوسائل الانتقال من سلالم ومصاعد ودرج متحرك، دورات مياه ومواقف سيارات).

٥ – الجانب التفصيلي للتصميم : Architectural Details

تهتم بتوثيق مختلف أنواع الصناعات اليدوية والآلية الداخلة في التصميم المتعلقة بالنسب والزخارف والألوان وتدرجها كمرآة تعكس اهتمام البَنّاء المسلم الدقيق والمتقن لعمله والتنظيم والقيم الداخلة في جمالياتها.

٦ – مستخدمو الحرمين الشريفين

مستخدمو الحرمين الشريفين هم الحجاج والمعتمرون والزوار والمجاورون الذين تهفوا أفئدتهم إلى هاتين البقعتين الشريفتين . مقالة هذا الجزء مخصصة لدراسة تطور أعداد المستخدمين من حجاج ومعتمرين وزوار ومجاورين ونوعياتهم وأنماط سلوكهم وخلفياتهم الحضارية، وتأثير كل فئة من الفئات على المحيط العمراني لكل من الحرم المكي الشريف والحرم المدني الشريف.

٧ – المقترب الأيكولوجي : Ecological Approach

يعنى بدراسة الخصائص التي تساعد المسلم على التكيف مع طبيعة الثوابت في الإسلام والبيئة (الطبيعية والمناخية والنباتية) ومع النظم الاجتماعية والقيم الثقافية السائدة في العالم الإسلامي.

مصادر المعلومات عن الحرمين الشريفين

ميدان الكتابة عن الحرمين الشريفين يحتاج إلى الرجوع إلى كتابات ذوي الاختصاص من الكفاءات العلمية المحلية والعربية والعالمية، ممن كتبوا عن الحرمين الشريفين وممن عاشوا الحياة في بيئة الحرمين الشريفين أو عملوا أثناء تنفيذ أي منهما والتي تحوى كتبهم ورحلاتهم ومقالاتهم الكثير من المادة العلمية القيمة. يلتزم الباحث بجمع كافة المعلومات والبيانات الضرورية من المصادر المكتوبة، العربية منها والأجنبية، وكذلك إجراء المسوحات اللازمة والأعمال الميدانية ومقابلة من تولى القيام بالعمل أو الإشراف على جزء منه وذلك من أجل استكمال المادة التي جمعت من المصادر المكتوبة وتصحيحها وتحديثها. وتشمل مصادر المعلومات الإدارات والمصالح الحكومية داخل المملكة وخارجها التي لها صلة بالتصوير الجوي أو التصوير الفوتوغرافي لأي من العناصر المعمارية للحرمين الشريفين أو محيطهما على اختلاف العصور ويدعم الباحث هذه المعلومات بالتقاط الصور لتلك العناصر ذات القيمة التاريخية الجمالية . وستساهم هذه المعلومات بالكثير من الدلائل التوضيحية للعناصر العمرانية والمعمارية . لذا فإن هذه المقالات تعتمد إلى حد كبير ولا تقتصر على المعلومات المكتوبة في كتابات المؤرخين والرحالة والمهندسين وأرباب صناعة البناء كأساس للحقائق المادية وعلى تحليل النصوص واستنباط المعاني الكامنة من ورائها خاصة عند مساءلة أهل الخبرات المحلية التي واكبت أعمال التوسعة السعودية لهذين المرفقين خلال الخمسين سنة الماضية.

فعند تحضير المادة الأساسية لأية مقالة، يتم مراجعة أدبيات البحث والتي تمثل خلفية أساسية للمعلومات. كما يتم الاتصال بالمؤسسات الحكومية والأهلية (المحلية والدولية) ذات العلاقة. وتشمل هذه الجهات ما يلي:

- وزارة المالية والاقتصاد الوطني والتي تتولى تمويل تكاليف التوسعات والصيانة والإدارة.
- وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد التي تتولى الإشراف على أوقاف الحرمين.
- الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين والتي تتولى العناية بالحرمين الشريفين وإدارتهما والإشراف على صيانتهما.
- أمانة العاصمة المقدسة التي تتولى تنفيذ المخططات والأنظمة التطويرية الصادرة من وزارة الشئون البلدية والقروية ووزارة الداخلية.
- أمانة المدينة المنورة التي تتولى تنفيذ المخططات والأنظمة التطويرية الصادرة من وزارة الشئون البلدية والقروية ووزارة الداخلية.
- مجموعة بن لادن السعودية والتي قامت وتقوم بجميع أعمال التصميم والتنفيذ والصيانة الخاصة بالحرمين الشريفين.
- معهد خادم الحرمين لأبحاث الحج بجامعة أم القرى بمكة المكرمة الذي يتولى جمع المعلومات عن الحجاج والمعتمرين وتحديد الاحتياج والبحث في مختلف مجالات الحج.
- أرشيف مكتبة السليمانية بأسطنبول في تركيا الذي يحوي بعض المخططات والوثائق عن الحرمين الشريفين.

- مصلحة المساحة المصرية بالقاهرة التي تولت عمل أول رفع مساحي وإعداد مخططات لمحيط الحرمين الشريفين في عام (١٩٥٣م).
- أدبيات البحث التي تحوي ما كتب عن الحرمين الشريفين منذ بزوغ الإسلام.
- هيئة تطوير المنطقة المركزية بالمدينة المنورة وذلك بهدف الحصول على المعلومات والمخططات والصور عن المواضيع ذات العلاقة بالتطورات العمرانية حول الحرم النبوي الشريف والداخلة ضمن اختصاصات هذه المقالات .

مكة المكرمة والبيت الحرام

تقع مكة المكرمة على خط عرض (١٩" ٢٥َ ٢١ْ) شمالاً، وخط طول (٣٦" ٤٩َ ٣٩ْ) شرقاً في وادٍ غير ذي زرعٍ يسمى وادي إبراهيم وسط منطقة جبلية ترتفع عن سطح البحر نحو ٣٠٠ متراً. ومناخ مكة المكرمة حار جاف صيفاً ومعتدل شتاءً. والأمطار قليلة تهطل في فصل الشتاء القصير. وعلى الرغم من قلة الأمطار فإن العواصف الممطرة قد تكون قاسية وشديدة في بعض الأحيان، لأن الجبال الشديدة الانحدار والأودية الضيقة وقلة الغطاء النباتي، كل ذلك يؤدي إلى حدوث سيول جارفة. وحيث أن الكعبة المشرفة تقع في وادي إبراهيم وعلى أحد المسارات التي تجتازها السيول التي تتجه صوب الجنوب الغربي، وكذلك وقوعها في مسار بعض الروافد التي تسيل من شعب أجياد في الجنوب الغربي، فقد تم تسجيل عدد من السيول الجارفة خلال القرون الهجرية السابقة والتي غمرت ساحة المسجد المكي الشريف حتى وصل مستوى الماء في بعض تلك السيول التاريخية إلى باب الكعبة المشرفة. [٣١]

تظهر التأثيرات المناخية بصورة جلية وقت سقوط الأمطار في مدينة مكة المكرمة فعلى الرغم من أنها قليلة المطر إلا أنها لا تعدم سنويا بعضاً من العواصف الرعدية التي قد تستمر لفترة تتراوح بين ساعة إلى ثلاث ساعات. ولما كانت هذه الأمطار شديدة الغزارة فإنها تجرف معها الصخور من الجبال المحيطة بها وتلقي بها في شوارع مكة التي هي بطبيعة الحال بطون الأودية التي تنصرف إليها مياه الأمطار. والنتيجة هنا تكمن في تكوُن السيول الجارفة التي تسببت في الكثير من الأضرار في السابق والتي كان لها بعض الآثار السيئة في حالة حدوثها وهو تغطية شوارع المدينة بالأنقاض والرواسب المحمولة بواسطة المياه (السيول) التي نجمت عن عوامل التحلل الميكانيكي للصخور التي تعرضت لها جبال مكة وشعابها.

أما عن الغطاء النباتي الطبيعي فإن مكة كما وصفت في القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام بأنها واقعة في وادي غير ذي زرعٍ لكنها لم تحرم من العود الأخضر الممثل بأنواع الشجر من الطلح والسمر والسلم والسنط وتعد شجر "السدر" النبق أكبر أنواع الشجَر في مكة حيث يصل طولها أحيانا إلى أكثر من ١٥ مترا، ويستفاد من خشبها القوي للوقود وأعمال البناء والنجارة و أكل ثمره (النبق) وصناعة بعض أنواع الورق.

وكان من علامات تكريم الله سبحانه وتعالى لهذه البقعة الطاهرة من الأرض أن حرم قطع شجرها وتنفير صيدها[٤]. كان لهذا الموقع المميز أهمية دينية عند المسلمين منذ آدم عليه السلام. وأهمية تجارية كبرى بين مناطق الاستقرار المحيطة "فارس" شرقاً و"الروم" شمالاً واليمن وما وراءها من أرض الحبشة جنوباً. وكانت المنطقة حلقة اتصال بين الحضارات الشرقية والشمالية والجنوبية و لم تك في عزلة جغرافية كالتي عاشت فيها كثير من مناطق الاستقرار الكبرى في آسيا مثل الصيخ. أما موضع المدينة المقدسة فقد خطته العناية الإلهية إذ هوت أفئدة من الناس إلى موضعها استجابة لدعاءِ أبٍ وغوثاً للهفة أمٍّ ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ [إبراهيم، آية٣٧] فكانت زمزم المكان الذي نبعت منه عين ماء لتروي ظمأ أم ورضيع وتجعل الطير والناس تهرع إليه. هذا المصدر الإلهي مكن القبائل من مشاركة أم إسماعيل وإسماعيل عليهما السلام العيش بجوار ذلك الموضع المتمثل في بطن وادي إبراهيم الذي تحف به الجبال الجرداء من معظم جهاته. ومنذ ذلك التاريخ لم ينقطع إعمار المدينة المقدسة ومجاوراتها، وزادت شهرة المكان برفع ابونا إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام القواعد من البيت دعوة للتوحيد. وأصبحت مكة تستقطب أفواج الحجيج إليها منذ ذلك التاريخ دون انقطاع،حيث استوطنتها القبائل المختلفة واتسعت شهرتها لدرجة أنها سميت بأم القرى.

المكين: مكان الكعبة أول بيت وضع للناس

الكعبة أول بيت وضعه الله للناس على الأرض وهو البيت الحرام والبيت العتيق وهو القبلة التي اختارها الله للمسلمين يتجهون إليها وقت صلاتهم حيث يقول سبحانه وتعالى ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعلمين ﴾. [آل عمران،آية٩٦]

ولبناء الكعبة قصة معروفه أوضحها لنا الله سبحانه وتعالى في أكثر من موضع من كتابه الكريم، ومن الطبيعي أن يوجد البيت أولا ثم ترفع قواعده، فالحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عليه السلام ليرفع القواعد من البيت هو ما يسمى بالمقام. وقد اختلف العلماء في بداية البيت الحرام فمنهم قال: إن البيت الحرام قد تم بناؤه في عهد إبراهيم عليه السلام ومنهم من قال إن البيت الحرام قد تم بناؤه في عهد آدم عليه السلام ومنهم من قال إن البيت قد أوجده الله قبل آدم عليه السلام.[٣٢] ويقودنا المنطق والاستقراء العقلي إلى الأخذ بأي من الآراء الثلاثة السابقة. فالعلماء الذين قالوا: إن البيت الحرام قد تم بناؤه في عهد إبراهيم عليه السلام لابد أن نقول لهم : لقد أقمتم الدليل على رأيكم من قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا

---

[٤] كما ورد في صحيح البخاري (١٠٠) قوله صلى الله عليه وسلم "أن مكة حرمها الله و لم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك الدماء ولا يعضد بها شجرة"

إنك أنت السميع العليم ﴾.[البقرة،آية١٢٧] ولابد هنا أن نفرق بين "الرفع" و "البناء" حيث أن البناء يستدعى ألا يوجد البيت ثم يتم بناؤه بعد ذلك، أما "الرفع" فهو الإعلاء والصعود،[٣٣] أي أن البيت الحرام كان موجودا قبل إبراهيم عليه السلام بطوله وعرضه لكن إبراهيم عليه السلام أقام البيت، أي جعل له ارتفاعا وصار بذلك له طول وعرض وارتفاع كان المقصود والمفترض من ذلك القول أن خليل الرحمن أقام الجدران فقط أما الطول والعرض فقد كانا موجودين قبل إبراهيم. وهكذا نعرف أن قواعد البيت قد انطمست بالطوفان المدمر الذي لم يبق على أحد من الكافرين والمشركين. وبعد هذا الطوفان اندثر موضع الكعبة وظل مختفيا إلى أن بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم وكان الناس في ذلك العهد قد نسوا ربهم و لم يعد الإنسان يتجه إلى الكعبة أو يطوف بها أو يلبى عندها وإنما اتجه إلى الأصنام يصنعها من الحجارة أو الخشب بيديه ثم يعبدها من دون الله.[٣١]

المكين : هنا هو مكان البيت الحرام أي الساحة التي أقام عليها إبراهيم جدران الكعبة التي نتجه إليها عندما نقيم الصلاة كان مكان البيت محددا لإبراهيم حيث أنه كان يعرف حدود "المكين" ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾.[الحج،آية٢٦] هنا يحدد الحق أنه أرشد إبراهيم عليه السلام إلى "المكين" أي إلى مكان البيت الحرام، ومعه إسماعيل عليهما السلام بعد أن كبر قليلا ليعاونه في رفع جدران البيت الحرام. وبذلك يكون رفع البيت كالترتيب التالي :

أولا : أن "المكين" كان موجودا قبل إبراهيم عليه السلام.

ثانيا : أن إبراهيم عليه السلام كان يعرف المنطقة التي يوجد بها البيت الحرام "المكين".

ثالثا : أن إبراهيم عليه السلام أسكن هاجر وابنها إسماعيل في هذه المنطقة.

رابعا : صدر أمر الحق تبارك وتعالى لإبراهيم أن يقيم البيت الحرام بعد أن أوضح له مكانه بالضبط وأوضح سبحانه وتعالى له مساحة "المكين" التي يجب عليه أن يقيم القواعد عليها هو وابنه إسماعيل.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمي﴾.[آل عمران،آية٩٦] ومعنى ذلك أن الحق قد أوضح لنا أن هناك "بيتا" للناس هو أول بيت وضعه للناس.

يوضح لنا الحق سبحانه وتعالى أن "البيت" موضوع للناس قبل إبراهيم عليه السلام وعندما جاء إبراهيم عليه السلام إلى "المكين" كان يعرف أن هنا مكانا لبيت الله وضعه للناس ليثوبوا إليه. وبعد أن كبر إسماعيل قليلا تلقى إبراهيم العلم عن الله بمكان البيت الحرام ليقيمه مع ابنه إسماعيل.

أما بالنسبة لأماكن النسك الأخرى كمقام إبراهيم: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العلمين﴾ [آل عمران ، آية ٩٧] والمسعى بين الصفا والمروة ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله

شاكر عليم﴾ [البقرة ، آية ١٥٨] ، وبئر زمزم الذي يقول الرسول ﷺ عن مائه: "ماء زمزم لما شرب له "[٥]. كل هذه الأماكن المقدسة والتي تشكل مع الكعبة بعضا من أماكن النسك الأساسية لمن يؤدون فريضة الحج أو العمرة، لها قدسيتها، ولها أبعادها، وأماكنها الثابتة والتي يجب أن تبقى بنفس الوضع الذي تركها عليها الرسول ﷺ.

البيت العتيق

هو البيت المعظم الذي خص جيرانه بالبركة والأمن من الله وإذا قصده الزائرون هللوا، وكبروا ابتغاء مرضاة الله وأقروا بوحدانيته، وصمدانيته وامتلأت قلوبهم رهبة من عظمة الله وقوته وفاضت نفوسهم رغبة في رعاية الله ورحمته.

للحرم أعلام منصوبة في جميع جوانبه نصبها إبراهيم الخليل ﷺ وكان جبريل يريه مواضعها، ثم أمر النبي ﷺ بتجديدها ، وتبعه في ذلك عمر ، وعثمان ، ومعاوية رضي الله عنهم، وهى الآن ثابتة في جميع جهاته إلا من جهة جدة وجهة الجعرانة فإنها ليست فيها أعلام.[٣٤]

كان الوثنيون يضعون به أصنامهم، واليهود يعبدون الله فيه على دين إبراهيم وموسى، والنصارى يتوسلون إلى الله بالمسيح وأمه العذراء، فاجتمع لذلك على سطح الكعبة اكثر من ثلاثمائة صنم ، وتمثال لإبراهيم وإسماعيل، وصورتا المسيح والعذراء. كما شارك المصريون والفرس والهنود والعرب في احترامهم للكعبة وأرجائها فكان الفرس يعتقدون أن روح "هرمز" حلت في الكعبة، والهنود يزعمون أن روح شبوه وهو الأقنوم الثالث من أقانيم تمثال إلههم "بوذا" قد تقمصت في الحجر الأسود حين زار البيت الحرام، وكان المصريون يسمون الحجاز بالبلاد المقدسة.[٣١، ٣٥، ٣٦]

إن أول من أدخل عبادة الأوثان في مكة ووضع الأصنام على سطح الكعبة هو عمرو بن لحى كبير خزاعة، وكان من قبل قد سافر إلى الشام فأخذ عبادة الأصنام عن أهلها عموما ومن ثمود خصوصا، وقد أخذ عن الثموديين عبادة هبل واللات ومناة وغيرها.[٣١] فلما ولي عمرو الكعبة وضع الأصنام عليها وظلت في الكعبة وعليها حتى دخل النبي ﷺ يوم الفتح في السنة الثامنة من الهجرة فأمر بإزالتها.[٣٧]

في تسمية البيت بالكعبة عدة أقوال ، فقيل لتكعبها - أي تربع مسقطها، وقيل لعلوه ونتوئه. وذكر الأزرقي في تاريخه أن الناس كانوا يبنون بيوتهم مدورة تعظيما للكعبة.[٢] وأن أول من بنى بيتا مربعا بمكة حميد بن زهير "فقالت قريش : ربع حميد بيتا إما حياة وإما موتا " وأضاف أن شيبة ابن عثمان كان يشرف فلا يرى بيتا مشرفا على الكعبة إلا هدمه تعظيما للبيت من أن يتطاول عليه البنيان.[٢]

وفي تسميته بالبيت الحرام لأن الله تعالى حرمه وعظمه ، ويقصد به سائر الحرم في قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا

---

[٥] سند ابن ماجه، عن جابر بن عبد الله "الحديث رقم ٣٠٥٣/."

بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام﴾. [المائدة ،آية٩٥] أما تسميته بالبيت العتيق فلأن الله أعتقه من الجبابرة ، ومن الغرق زمن الطوفان . وقيل أيضا لأن الله يعتق زواره من النار والعذاب، قال تعالى ﴿ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ [الحج ، آية ٢٩] وهو الطواف الواجب في مناسك الحج ، فلا يتحلل الحاج إلا بأدائه. وبنيان الكعبة مربع، يتوسط المسجد الحرام ، وزواياه تتجه نحو الجهات الأصلية . وتعرف زواياها بأركانها حسب اتجاهاتها فيسمى الركن الشمالي بالركن العراقي ، والشرقي بالأسود - لوجود الحجر الأسود به - والغربي بالشامي، والقبلي باليماني (الجنوبي). وشكل الكعبة من الداخل مربع مشطور من زوايته الشمالية.[٢٢]

صفة الكعبة: وهي في الأصل بناء مجوف من الداخل ليس لها سقف، وقد جعل إبراهيم الخليل عليه السلام لها بابين ملاصقين للأرض أحدهما من الشرق والثاني من الغرب، و لم يجعل لها سقفا ولا وضع على البابين أبوابا تفتح وتغلق، وحفر في داخلها بئرا يكون خزانة لهداياها. أما داخل الكعبة فقد جاء وصفها في العديد من الكتب والمقالات التي تصف تاريخ الكعبة المعظمة. [٣٥، ٣٨]

وقد حدثت لها إضافات لاحقه مثل عمل سقفين لها. كما تعاقب عليها ترميم في سقفها الأسفل وتمت إزالة سقفها الأعلى وعمل سقف جديد مع تغيير الأعواد والأخشاب التالفة فيه. وأنشئت على الجدار بين السقفين ميدة تحيط بالجدران جميعا بحيث لا يظهر من الميدة شئ زائد، كما رممت الكسوة الرخامية التي على الجدران من الداخل. وهي من الداخل تقوم على ثلاثة أعمدة ضخمة، وفي الناحية الشمالية يقع باب التوبة الذي يتم الصعود منه إلى سطح الكعبة، ويغطي سقف الكعبة من الداخل وجانبا من جدرانها ستائر من الحرير الأحمر عليها مربعات مكتوب فيها (الله جل جلاله). وفي الناحية المقابلة لباب الدخول محراب وبقية الجدران مغطاة بالرخام المجزع. وبالكعبة صندوق ضخم تحفظ فيه بعض مقتنياتها كما تدلى من السقف قناديل ضخمة من الذهب التي رصعت بالجواهر واللآلىء.[٣١]

وتسمى الكعبة بالبيت الحرام. قال تعالى : ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قيما للناس والشهر الحرام والهدى والقلئد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيئ عليم﴾ [المائدة ،٩٧] فالحرم الذي يقوم به أمر دينهم بالحج ودنياهم بالأمن داخله، وعدم التعرض له وجنى ثمرات كل شيء إليه. والحرام هو الممنوع أما بتسخير إلهي أو بمنع قهري بالعقل أو الشرع . والحرم سمي بذلك لتحريم الله فيه كثيرا مما ليس بمحرم في غيره من المواقع.

والكعبة أصلها لغويا كعب الرجل وهو العظم عند ملتقى القدم والساق، فالكعبة كل بيت على هيئته في التربيع وبها سميت الكعبة والرجل يجلس في كعبته أي غرفته وبيته على تلك الهيئة.[٣٧] وهو أصل البيت الحرام وكانت تكسي في الجاهلية بالأنطاع، فكساها الرسول ﷺ بالثياب اليمانية، ثم كساها عمر وعثمان رضي الله عنهما

بالقباطي، لقد كان عبد الملك بن مروان أول من كسا الكعبة بالديباج، وكان ابنه الوليد أول من آتي بأساطين الرخام من مصر والشام ونقلها إلى مكة، وسقفها بالخشب والساج المزخرف ، وكانت الكسوة منذ عصر عمر الفاروق تصنع في مصر.[٢] وفي مراحل وتعدد بناء الكعبة، أقوال كثيرة منها أن الكعبة بنيت اثنتي عشرة مرة بيانها كالتالي:[٢٢، ٣٨]

- بناها الملائكة حين أسست الكعبة.
- آدم عليه السلام.
- شيث بن آدم بناها بالحجارة والطين واستمرت حتى الطوفان أيام نوح عليه السلام.
- إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.
- العمالقة ملوك من نسل عمليق بن سام بن نوح عليه السلام.
- قبيلة جرهم الباقي منهم الحارث بن نصار الأصفر.
- قصي بن حكيم الجد الرابع للرسول ﷺ.
- قبيلة قريش وهو البناء الذي أدركه النبي ﷺ.
- عبد الله بن الزبير عند إعلانه الخلافة .
- الحجاج بن يوسف بأمر عبد الملك بن مروان بعد قتل الحجاج لعبد الله بن الزبير وضرب الكعبة بالمنجيق.
- في عهد الدولة العثمانية بنيت الكعبة مرتان الأولى في عام ١٠١٩هـ عندما هدمتها السيول ، ثم عام ١٠٤٠هـ عندما ظهرت بها بعض العيوب.

حرمة الكعبة : منذ أن أمر نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ببناء الكعبة، وتطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود من الموحدين لله سبحانه وتعالى كان على حجاجه تقديس هذا المكان.
وظل البيت محجة للناس رغم تواجد الأصنام والأوثان وممارسة الشرك عنده إلى أن اكرم الله الوجود الإنساني بالرسول الأعظم محمد خاتم الرسل ﷺ فطهر بيت الله من الأوثان والأصنام عندما دخلها فاتحا منتصرا في السنة الثامنة للهجرة. عندها تمت طهارة البيت ومناسك الحج من كل ضروب الوثنية وعاداتها فلم يعد منذ تلك السنة يحج إلى البيت كافر، أو يطوف عريان وعادت إلى بيت الله المناسك الصحيحة.

مقاس الكعبة: تفاوت المؤرخون في ذكر مقاس الكعبة وهو اختلاف طبيعي ناشئ من اختلاف الأذرع وما بين ذراع اليد وذراع الحديد وهما يتفاوتان.
وقد قام معهد خادم الحرمين لأبحاث الحج في جامعة أم القرى بمكة المكرمة بدراسة الحركة في المطاف ووضع من خلالها مخططا تفصيليا للكعبة المشرفة وحجر إسماعيل بيانها كالتالي: [٣٦، ٣٨]

١- من الركن الأسود إلى الركن الشامي ,٦٨١١ مترا وفيه باب الكعبة.

٢- من الركن اليماني إلى الركن الغربي ,١٢٠٤ مترا.
٣- من الركن الأسود إلى الركن اليماني ,١٠١٨ أمتار.
٤- من الركن الشامي إلى الركن الغربي ٩٠ ,٩ أمتار.
يقال أن ارتفاع الكعبة كان في بناء إبراهيم عليه السلام ,٤٣٢ أمتار، وبناء قريش .٨,٦٤ أمتار، وبناء عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ,١٢٩٥ مترا وحافظ الخليفة عبد الملك بن مروان على الارتفاع في بناء الحجاج ,٨٦٤أمتار. [٢٢]

خصائص الكعبة: من أهم خصائص البيت الحرام أن الله تعالى حفظه من كيد الكائدين، وتخريب المخربين، وظل البيت شامخا طوال خمسة آلاف سنة منذ أن بناه إبراهيم عليه السلام وسيظل البيت قائما للطائفين والقائمين والركع السجود ما شاء الله ذلك.
وقد مرت محاولات لهدم الكعبة، أعظمها محاولة أبرهة الأشرم ملك اليمن، وكان تابعا لملك الحبشة فخرج بجيش جرار من اليمن ومن الحبشة، ومعه فيل عظيم، فلما بلغ وادي محسر الواقع بين مزدلفة ومنى، ولم يبق بينه وبين الكعبة إلا مسافة عشرة كيلو مترات عبأ جيشه وقدم الفيل فكانوا إذا وجهوه إلى جهة الحرم وقف مكانه ولزم موضعه ولم يتحرك منه، فإذا وجهوه إلى جهة اليمن هرول ومشى مسرعا.[٢٢] فعندما لم ينتهوا أرسل الله عليهم طيرا أبابيل سوداء، حيث ذكر سبحانه وتعالى قصته في سورة الفيل﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ۞ ألم يجعل كيدهم في تضليل ۞ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ۞ ترميهم بحجارة من سجيل ۞ فجعلهم كعصف مأكول ۞ ﴾. [الفيل،آية من ١-٥]

خدمة الكعبة: خدمة الكعبة تسمى بالحجابة، وخدام الكعبة يسمون بسدنة الكعبة، وهم جماعة مخصوصون من قريش يتوارثونها بأمر رسول الله ﷺ حتى الآن، حيث قال لهم ﷺ"خذوها خالدة تالدة لا يترعها منكم إلا ظالم " وهم المعرفون ببيت بنى شيبة وقد سلم الرسول الكريم ﷺ مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة وشيبة بن عثمان بن طلحة بعد فتح مكة المكرمة امتثالا لقوله تعالى ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾. [النساء ،آية٥٨] وقال قولته ولا زالت الحجابة في نسل شيبة بن عثمان حتى اليوم.[٣٩]
وأول من قام بخدمة الكعبة الخليل إبراهيم عليه السلام ومنه آلت خدمة الكعبة إلى ولده إسماعيل عليه السلام وبعد إسماعيل صارت لأولاده إلى أن اغتصبها منهم أخوالهم جرهم.[٢٢] ثم استولت عليها خزاعة عنوة ومكثت فيهم عدة قرون إلى أن آل أمر مكة والكعبة إلى قصي بن كلاب القرشي وهو الجد الرابع للنبي ﷺ .[٢٢] ثم سلم قصي أمور السدانة إلى ولده الأكبر عبد الدار واستقر بها المقام عند شيبة بن عثمان بن طلحة إبان فتح مكة وذريته من بعده.[٢٢]

ودخول الكعبة المعظمة سنة مستحبة سنها رسول الله ﷺ بدخوله وتبعه أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين كما دلت عليه السنة الصحيحة.

وأما قول العلماء أن تحية المسجد الطواف فمخصوص بغير داخل الكعبة لكونه ﷺ جاء فأناخ عند البيت وصلى فيه ركعتين.

الحجر الأسود: الحجر الأسود ويسميه البعض بالحجر الأسعد ويكتفى أحيانا بذكر كلمة "الحجر" للدلالة عليه مثبت في الركن الشرقي للكعبة ولقد تكسرت في يوم من الأيام ثلاث قطع ثم ضمت أجزاؤه بعضها إلى بعض بواسطة حلقة من الأحجار يطوقها إطار من الفضة. لونه اسود يميل إلى الحمرة، وحبيبات صفراء، وهو الآن عبارة عن سبع قطع مختلفة المقاسات محاطة بالشمع ويحتويها إطار من الفضة، ومحاذاته مبتدأ الطواف وقد وضعه رسول الله ﷺ في مكانه الحالي قبل خمس سنين من مبعثه عندما اختلف المشركون فيمن يضعه، واستقر بهم الرأي أن أول من يدخل الحرم له شرف وضع الحجر في مكانه فكان له ﷺ ذلك حينما وضع الحجر على رداء وأمر علية القوم بحمل ذلك الرداء ومن ثم وضعه بيده الكريمة في موضعه. وقد حدث في أواخر القرن الثالث الهجري أن اعتدى القرامطة على البيت وسرقوا الحجر وأخذوه إلى "هجر" لمدة تزيد عن سبعة عشر عاما لكنهم أجبروا على إعادته إلى مكانه بعد توعد الخليفة العباسي لهم بالحرب.[٢٢]

وقد أمر الملك فيصل ابن عبد العزيز رحمة الله تعالى بعمل إطار فضي له حماية له وتجميلا.[٨] ويعتقد أن الحجر الأسود نزل به آدم عليه السلام من الجنة والله أعلم بذلك.

الركن اليماني: هو ركن الكعبة المشرفة القبلي (الجنوبي) وهو يسبق الحجر الأسود في الطواف "ولهذا المكان فضائل عظيمة، ومزايا جليلة وأعظم فضيلة له هي أن المصطفي ﷺ استلمه بيده الشريفة وكان يفعل ذلك كثيرا فصارت سنة نبوية ثابتة مشروعة "ومن فضائله هو والركن الأسود أنهما لا زالا على القواعد الأولى للبيت التي رفعها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ".

حجر إسماعيل: حجر إسماعيل عليه السلام بكسر الحاء وسكون الجيم هو الحائط الواقع شمال الكعبة المعظمة بين الركن الشامي والعراقي وهو على شكل نصف دائرة منقوشة بالرخام جعله إبراهيم عليه السلام عريشا إلى جانب الكعبة. [٢٢] وهذه الرواية تدل على أن الحجر لم يكن من البيت المعظم وإنما كان خارجا عنه، غير أنه لما بنت قريش الكعبة أنقصت من جانبها الشمالي ستة أذرعا وشبرا على أشهر الروايات الصحيحة وأدخلته، في حجر إسماعيل[٢]. ويسمى الحجر أيضا الحطيم. لأن الناس يزدحمون على الدعاء عنده ويحطم بعضهم بعضا.[٢٢]

واهتم خلفاء المسلمين على مر العصور بترخيم وترميم الحجر وذرعه طولا من جدار الكعبة الذي تحت الميزاب إلى جدار الحجر ٨٤٧, مترا وارتفاعه ١١٢, مترا وعرض جداره ١٥٦, مترا وطول ما بين بابية ٨٧٣, مترا وذرع تدوير جداره من خارج ٢١, ٥٧ مترا وذرع طوفة واحدة حول الكعبة والحجر ٦٨ مترا تقريبا.[٢٢]

شاذروان الكعبة: وهو البناء المحاط بأسفل جدار الكعبة مما يلي أرض المطاف من جهاته الثلاث الشرقية والغربية والجنوبية وهو بناء مسنم بأحجار الرخام والمرمر أما الجهة الشمالية فليس فيها شاذروان وإنما هو بناء بسيط ارتفاعه أربعة قراريط عن حجر إسماعيل وهو من الحجر الصوان من نوع الحجر الذي بنيت به الكعبة المعظمة.[٢٢]

"وحقيقة "الشاذروان" هو أصل جدار الكعبة المعظمة حيمنا كانت على قواعد إبراهيم وقد انتقصته قريش من عرض أساس جدار الكعبة المعظمة حين ظهر على وجه الأرض كما هي العادة في البناء.[٢٢]

"قال الأزرقي: وعدد حجارة الشاذروان التي حول الكعبة ثمانية وستون حجرا في ثلاثة وجوه ،من حد الركن الغربي إلى الركن اليماني خمسة وعشرون حجرا منها طول ثلاثة اذرع ونصف عتبة الباب الذي سد في ظهر الكعبة وبينه وبين الركن الغربي إلى الركن اليماني أربعة أذرع وفي الركن اليماني حجر مدور وبين الركن اليماني والركن الأسود تسعة عشر حجرا ومن حد الشاذروان إلى الركن الذي فيه الحجر الأسود ثلاثة أذرع واثنا عشر إصبعا ليس فيه شاذروان ومن حد الركن الشامي إلى الركن الذي فيه ثلاثة وعشرون حجرا ومن حد الشاذروان الذي يلي الملتزم إلى الركن الذي يلي الحجر الأسود ذراعان ليس فيها شاذروان وهو الملتزم وطول الشاذروان في السماء ستة عشر إصبعا.[٢]

الملتزم: "الملتزم هو ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة وسمي بالملتزم لان الناس يلزمونه ويدعون عنده وفضله عظيم وثبت أنه من المواطن التي يستجاب فيها الدعاء وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما وقد التزم بين الباب والحجر هذا والله المكان الذي رأيت رسول الله ﷺ التزمه وقد قال رسول الله ﷺ الملتزم موضع يستجاب فيه الدعاء ما دعا الله فيه عبد دعوة إلا استجابها"

ميزاب الكعبة: "أول من وضع ميزابا للكعبة قريش حين بنتها سنة ٣٥ من ولادة النبي ﷺ ، حيث كانت قبل ذلك بلا سقف ولما بناها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وضع لها ميزابا وجعل مصبه على حجر إسماعيل كما فعلت قريش.[٣٦] وقال الأزرقي: "طول الميزاب أربعة أذرع وسعته ثمانية أصابع في ارتفاع مثلها".[٢] والميزاب ملبس من داخله وخارجه بصفائح الذهب، والذي ذهبه الخليفة الوليد بن عبد الملك.[٢٢] وقد وقع تغيير وتبديل في ميزاب الكعبة لسببين: أحدهما أنه كان إذا اعتراه خراب عمل غيره، والثاني كان بعض الملوك أو الأغنياء من عظماء المسلمين يهدي الكعبة ميزابا فيركب في الكعبة ويترع الذي قبله.

وقد عمل السلطان عبد المجيد خان ميزابا صنع بالقسطنطنية عام ١٢٧٦هـ، وركب في نفس السنة وهو مصفح بالذهب، ويزن نحو خمسين رطلا، وهو آخر ميزاب ركب بالكعبة المشرفة.[٢٢]

باب الكعبة: اختلف الرواة في أول من عمل للكعبة المعظمة بابا فمنهم من قال وضعه تبع الثالث أحد ملوك اليمن المتقدمين على البعثة النبوية بزمن بعيد وهذا القول رواه الأزرقي في تاريخ مكة. وباب الكعبة له قفل ومصراعان.[٢]

ولما عمرت قريش البيت جعلت له بابا بمصراعين. فلما كان الحجاج عمل له بابا طوله ستة اذرع وشبر وذلك أن الحجاج رفع باب الكعبة عما كان عليه في بناء ابن الزبير لذلك صار طول الباب الذي عمله على قدر الفتحة.[٢٢]

وفي العهد السعودي تم تركيب بابين الأول في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله عام ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م حيث تم صنع باب جديد من الحديد بسمك ٥ ,٢سم وارتفاع ,٣١٠أمتار ومدعم بقضبان من الحديد وغطى وجهه الخارجي بألواح من الفضة المطلية بالذهب، وزين الباب بأسماء الله الحسنى وقد صنعه شيخ الصاغة بمكة المكرمة.[٢٢]

أما الباب الثاني فقد أمر بصنعه الملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله، عندما لاحظ قدم الباب عند صلاته في جوف الكعبة ورأى آثار خدوش فيه. أصدر الملك خالد توجيهاته فورا بصنع باب جديد للكعبة وباب آخر لباب التوبة من خشب وتغليفه بالذهب الخالص عام هـ١٣٩٧/١٩٧٧م.[٨]

باب التوبة: يقع هذا الباب في الناحية الشمالية حيث يصعد من خلاله إلى سطح الكعبة وقد تم تصميمه على أساس أن يأتي مطابقا للباب الرئيسي من حيث الزخرفة وطريقة الكتابة بحيث يظهر التجانس بين البابين ويبلغ عرضه ٧٠سم وارتفاعه ٢٣٠سم^{٢} وصنع من نفس نوع الخشب المصنوع منه باب الكعبة ولكن بسماكة أقل، وهو يوصل إلى سطح الكعبة. وبوسط الكعبة من الداخل ثلاثة أعمدة مرتكزة على حائط الحجر الأسود من ناحية وحافة الميزاب من ناحية أخرى وترجع إلى عصر ابن الزبير.[٣٨]

المطاف

يحيط بالكعبة المعظمة المطاف وهو دائرة مستطيلة يبلغ قطرها الشمالي والجنوبي واحدا وخمسين مترا . وقطرها الشرقي والغربي واحد وأربعين مترا وتبعد دائرة المطاف الخارجة عن مستطيل الكعبة غربا وجنوبا تسعة عشر مترا وشرقا وشمالا اثني عشر مترا.[٢٢]

ولان الكعبة لم تبن بالطين أو الحجر بل كانت رضما غير مسقوف لما رواه ابن عباس في صدد بناء الخليل حيث قال : "أما والله ما بنياه بقصة ولا مدر ولا كان معهما من الأعوان والأموال ما يسقفانه ولكنها اعلماه فطافا به".

ولقد ذرع محمد طاهر الكردي رحمه الله تعالى عرض بلاط المطاف من شاذروان الكعبة فكان من صوب المشرق ١١٥٠, متر ومن صوب الشمال١٢مترا ، ومن صوب الغرب ,٦٥١٦متر ومن صوب الجنوب,٢٠١٥ مترا.[٢٢]

أما ذرع المطاف بعد توسعته الأخيرة فأصبح على التوالي ,١٦٦٥ متر[٨] ، ,٢٧٤٠ متر ، ,٨٠٢٦ مترا ، ,٢٧٧٠ مترا .

المسجد الحرام

بعد بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الكعبة بقيت المساحة حول الكعبة غير مبنية ولا محاطة بجدار وقامت حولها الدور من بعد تولى قصي بن كلاب حكم مكة. قبل البعثة النبوية بحوالي ١٥٠سنة. وبعد الفتح العظيم في السنة الثامنة من الهجرة اتخذت تلك المساحة حول الكعبة مسجدا، وعندما ضاقت بالطائفين والمصلين هدم عمر بن الخطاب ﷺ بعض الدور التي حوله وحولها إلى ساحة المسجد ، وأقام جدارا قليل الارتفاع، ثم وسعها عثمان بن عفان ﷺ وأدارها برواق، ومن بعده وسطها عبد الله بن الزبير.

أما الوليد بن عبد الملك الأموي فقد نقل إليها أساطين الرخام وأقام السقف وزخرفة ثم توالت التوسعة إلى يومنا هذا. وفي هذا المكان يطوف الحجاج والمعتمرون والزوار في الليل والنهار.

وقد وصفه الله تعال حيث قال : ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ [آل عمران،٩٧] ، أي الحجر الذي قام عليه عند بناء البيت وأثر قدميه فيه إلى الآن رغم تطاول الزمان.

مقام إبراهيم : موضع المقام في الجاهلية والإسلام

ذكر الفاسي في كتابه شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام أن موضع المقام في الجاهلية والإسلام هو الذي كان عليه في عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، إلا أن السيل ذهب به في خلافة عمر فجعل في وجه الكعبة حتى قدم عمر فرده بمحضر من الناس.[٢٨]

كان وضع مقام إبراهيم عليه السلام في مكانه الذي هو عليه الآن من عمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك أنه جاء سيل أم نهشل في خلافته سنة سبع عشرة من الهجرة إلى مكة من أعلاها فدخل المسجد الحرام، وكان سيلا عظيما حيث اقتلع المقام من موضعه وذهب به، فلما جف الماء وجدوه أسفل مكة فأتى به والصق في وجه الكعبة وربط بأستارها. وكان عمر يومئذ بالمدينة فلما بلغه ذلك هاله الأمر وركب من ساعته فزعا إلى مكة فدخلها بعمرة في رمضان من السنة المذكورة فلما دخل المسجد الحرام ووقف على حجر المقام وقال أنشد الله عبدا عنده علم في هذا المقام فقال المطلب بن أبي وداعة السهمي رضي الله عنه: أنا يا أمير المؤمنين عندي علم بذلك فقد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر فأخذت قدره من موضعه إلى الركن، ومن موضعه إلى باب الحجر، ومن موضعه إلى زمزم بمقاط وهو عندي في البيت. فقال عمر: فاجلس عندي و أرسل إليها فأت بها فمدها فوجدها مستوية إلى موضعه هذا فسأل الناس وشاورهم فقالوا نعم هذا موضعه فلما تثبت عمر رضي الله عنه من ذلك أمر به فاعلم ببناء تحت المقام ثم وضعه فهو في مكانه هذا إلى اليوم.[٢] وعمل هذا الصحابي الجليل أحسن من عمل الكثير من أعمال المساحة التي يطبقها كبار المهندسين في توقيع نقطة معينة.

إن مقام إبراهيم عليه السلام حيث قال تعالى في حقه﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾[البقرة،آية١٢٥]

،وقال تعالى﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم ﴾. [آل عمران،آية٩٧] فهو مقام مقدس لا يستهان بأمره وهو كالحجر

الأسود يرتبط أمرهما بالكعبة المشرفة إلى أن تقوم الساعة فخليق بعمر رضي الله تعالى عنه أن يحضر من المدينة إلى مكة سريعا عندما بلغه خبر السيل الذي اقتلع المقام من محله وذهب به إلى اسفل مكة.

روى الأزرقي في تاريخه عن عبد الله بن صفوان أنه قال: أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عبد الله بن السايب العابدي بتحويل المقام إلى موضعه الذي هو فيه اليوم قال فحوَّله ثم صلى المغرب وكان عمر قد اشتكي رأسه وهذا أيضا هو السبب في عدم وضعه المقام بنفسه في محله كما هو صريح عبارة الأزرقي.[٢]

قال فلما صليت ركعة جاء عمر فصلى ورائي. قال فلما قضى صلاته قال عمر أحسنت فكنت أول من صلى خلف المقام حين حول إلى موضعه.

كان كرسي المقام من صفائح الرصاص حتى استبدل به الخليفة المنتصر بالله العباسي سنة ٢٤١هـ صفائح من فضة ثم أنشئت له مقصورة ثانية سنة ٨١٠هـ على يد السلطان فرج بن برقوق وصفها الفاسي عن مشاهده وقال إن مقام إبراهيم يتوسط القبة وشبابيكها الأربع الحديدية ويحيط بالمقام قبة من حديد يقصد المقصورة مثبتة في الأرض.[٢٨] أما القبة التي تعلو القبة الحديدية التي بجوفها المقام فيعتقد أنها من عمل الملك المسعود صاحب اليمن ومكة ثم جددت قبة المقام عام ٩٠٠هـ ثم ١٠٤٩ هـ ثم نقشت بالذهب عام ١٠٧٢ هـ وفي عام ١٢٧٩هـ زاد السلطان العثماني عبد العزيز في ارتفاع القبة نحو ذراع ونصف.[٢٢] ونقل إبراهيم بن عبيد العبد المحسن[٧] عن ابن بشر في تاريخه (عنوان المجد في تاريخ نجد ١٨٧/١) أن الأمير سعود بن عبد العزيز كشف القبة التي تعلو صخرة المقام في حجة عام ١٢٢٥ هـ ليرى الناس الحجر وأثر القدمين ووصفها ابن بشر بقوله: (صخرة بيضاء مربعة الرأس طولها نحو الذراع وعليها سبيكة صفراء نقش عليها ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ۞ شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ۞ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ۞ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ۞ ﴾ [النحل آية من ١٢٠- ١٢٣]

وتحمل كسوة المقام آيات قرآنية وأدعية ونصوصا تاريخية ونقوشاً زخرفية أوردها إبراهيم رفعت في مرآة الحرمين[٤٠] ٢٤٦/١ وهي التي شاهدها في حجة عام ١٣٢٥هـ .

وفي رجب سنة ١٣٨٧هـ بنى المقام الجديد – الحالي- ومساحته ٤٠×٤٠ سنتيمتر وأصبح غطاؤه من الكرستال والحاجز من الحديد والقاعدة من الرخام ومجموع مساحته ١،٨٠×١،٣٠م٢ مما أدي إلى توفير نحو خمسة أمتار في عرض المطاف ، ويبلغ قطر الغطاء الخارجي ٨٠ سنتمير، وسمكة ٢٠ سنتيمتراً بينما ارتفاعه نحو المتر، وهو مقام على قاعدة نحاسية مستديرة مشيدة على قاعدة من الرخام بارتفاع ثلاثة أرباع المتر وبلغ وزن الغطاء ١٧٠٠م/جرام منها ٦٠٠ك/جرام وزن القاعدة النحاسية فقط. ولقد أحيط المقام من الداخل بحاجز من المرمر بينما يرتفع الحاجز الحديدي ثلاثة أمتار.[٢٢]

زمزم: حفر البئر وأسماؤه

بعد أعمال السعي التي قامت بها أم إسماعيل عليهما السلام حدثت المعجزة الإلهية عندما ضرب جبريل عليه السلام بقدمه أو بجناحه مكان زمزم ففار الماء. ولما رأت أم إسماعيل الماء ذلك هرولت لترى الماء ينبع ويسيح في الوادي. وخشيت أم إسماعيل نفاذ الماء وحجرت عليه وهي تردد: زم زم. وقد قال الرسول ﷺ"رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عينا جارية". وبما أن المكين (المحيط الذي حول الكعبة) على طريق القبائل التي تجوب الجزيرة العربية جنوباً وشمالاً فقد رأوا أثر الماء في واقع ملموس حيث الطيور تحلق حول مكان وعرفوا أن هناك مصدر حياة (ماء أو غذاء) وعرفوا ذلك بالسليقة أن معجزة قد حدثت وتوجهت قبيلة جرهم إلى موقع البئر وطلبت مجاورة إسماعيل وأمه فوافقت أم إسماعيل ذلك وشاركتهم الماء والأرض حسب اتفاق جرى بينهما وتزوج منهم إسماعيل عليه السلام واستقر به المقام حول زمزم ومنذ ذلك الحين بدأت أفئدة من الناس تهوي إليهم استجابة لدعاء أبينا إبراهيم عليه السلام عندما أمره الله تعالىٰ بالأذان بالحج.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : رسول الله ﷺ "ماء زمزم لما شرب له إن شربته تستشفى به شفاك الله، وإن شربته ليشبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله وهى هزمة جبريل وسقيا الله إسماعيل أخرجه الدار قطني موقوفا واحمد وابن ماجة منه مرفوعا "ماء زمزم لما شرب له ". ولقد خص الله عز وجل عبد المطلب - جد النبي ﷺ - بكشف زمزم وكانت جرهم تشرب من زمزم ثم استخفت بحرمة البيت ونهبت مال الكعبة و أفسدت في الحرم فنضب ماء زمزم وغبي موضعه ويروي الزبير بن بكار أن جرهم دفنتها حين خرجت من مكة.[٢] وذكر الأزرقي أن أول من عمل على زمزم شباكا أبو جعفر المنصور كما جعل عليها الرخام وفرش أرضيتها.[٢]

موقع البئر: تمثل فوهة بئر زمزم أثر قدم أو جناحه المَلَك وتقع أسفل منطقة الطواف الحالي في دائرة من الرخام كتب عليها " زمزم " وتبعد فم البئر عن سطح صحن الطواف ١,٥٦متر ويبعد مركز فتحة البئر عن الحجر الأسود ٢٠٦٠,متر كما يبعد منتصف الحجر الأسود حتى سطح صحن الطواف ٢٥ ,١متر كما يبعد عن مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام بمقدار ٤٥ ,١٢ متر . كما يوجد حوضان أنشئا لتجميع المياه الجوفية بجوار بئر زمزم أحدهما يبعد ٣١ مترا بينما يبعد المصدر الآخر ٣٦ مترا وهذه الأماكن تركت في الدكة الخرسانية لأرضية زمزم لتصرف هذه المياه الجوفية.[٤١]

أعمال الحفر والصيانة للبئر:

اندثر البئر بعد موت أحفاد إسماعيل وإهمالهم العناية بالكعبة والبئر وتوالت على البئر السنون وأهمله الإنسان واندفن إلى أن نُبِّئَ عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ ثلاث مرات بحفر البئر وقام هو وبنى جلدته من حماة الحرم بالفعل بحفر بئر زمزم وتنظيفه مما ألقي به واستخراج الماء مرة أخرى للحجيج وتوالت بعد ذلك حفريات البئر.[٢] وقد عرف البئر بأسماء عديدة منها زمزم، هزمة جبريل، سقيا إسماعيل لا تزف ولا تذم وهي بركة وسيدة

ونافعة ومضمونة وعونة وبشرى وصافية وبرة وعصمة وسالمة وميمونة ومباركة وكافية وعافية ومقزية وطاهرة وحرمية ومروية ومؤنسة وطعام وشفاء من كل سقم .[٤١]

عندما فتح الرسول ﷺ مكة في السنة الثامنة من الهجرة وطاف بالبيت العتيق على ناقته جاء زمزم فقال ناولني مغزل "دلو ماء" فشرب منها ثم تمضمض فمج في الدلو ثم أمر ما في الدلو فافرغ في البئر ثم قال "لولا أن تغلبوا عليها لنزعت معكم" ومنذ ذلك الوقت والحجاج والمعتمرون والمجاورون والزوار للمسجد الحرام يشربون ويستشفون من ماء زمزم كما ينقل يومياً منها عشرات الأمتار المكعبة إلى المسجد النبوي الشريف.

أما حالة البئر حالياً فهو يتركب من قسمين أولهما : جزء مبني بعمق ٨ ,١٢مترا وينقسم هذا الجزء إلى قسمين الجزء الأول بعمق ٨ ,٩ متراً مليس بالأسمنت والجزء الثاني بعمق ٣ أمتار مليس قديما بالنورة وقد يكون من عام ١٠٢٨هـ.[٢٢]

ثانيها جزء منقور في الجبل وعمقه ,١٧٢٠ مترا ، أما قطر بئر زمزم فيختلف باختلاف العمق فهو يتراوح بين ,١٥٠مترا – ٢ مترا أما عند التقاء الجزء المبنى بالجزء المنقور في الصخر فيصل قطر البئر ٨ ,١مترا.[٢٢]

أما العيون الرئيسية والقديمة لبئر زمزم فقد بنيت بصفين من الحجارة وهي عند مكان التقاء الجزء الحجري من البئر بالجزء المنقور في الصخر، إن الفتحة الأساسية الأولى (العين الكبرى) جهة الحجر الأسود بطول ٧٠سم وبفتحة قدرها ٣٠سم وبها غور إلى الداخل في اتجاه الكعبة يتدفق منها أكبر قدر من المياه أما الفتحة الأساسية الثانية (العين الصغرى) وهي جهة مقام سيدنا إبراهيم بطول ٤٥سم وبفتحة قدرها ٣٠سم وبها غور اتجاه مقام إبراهيم وتبعد عن الفتحة الأولى بمقدار متر واحد. العيون الفرعية تتكون من خمس فتحات للمياه في مسافة طولها متر واحد بين الفتحتين الأساسيتين كما يوجد فيها أيضا واحد وعشرون فتحة تصل بين الفتحة الأساسية جهة الحجر الأسود حتى تصل إلى الفتحة الأخرى جهة مقام إبراهيم. تتدفق المياه من هذه الفتحات بكميات متفاوتة كما أنها لا توجد على مستوى واحد ولكنها تخرج من بين الأحجار وعلى مستويات مختلفة.[٢٢]

وقد قام معهد خادم الحرمين لأبحاث الحج في سنة ١٤٠٠هـ بدارسة مياه بئر زمزم وأخذت عينات من البئر وقد تبين أن استمرار الضخ من البئر بكميات عالية يؤدى إلى تنظيف هذه العيون وهذا يؤكد مما لا يدع مجالا للشك أن مصادر مياه زمزم الأساسية خالية تماما من أي نوع من الميكروبات المسببة للتلوث ولله الحمد.[٤١]

يتميز ماء زمزم بطعم فيه ملوحة ولكنه طعم خاص غير طعم كل مياه الدنيا، لذلك من ألف شربه وعرف طعمه يميزه عن بقية المياه سريعا ولو مرت عليه أعوام عديدة و لم يذقه والحقيقة أنه يصعب وصف طعمه ولا يعرفه إلا من ذاق طعمه بنفسه نعم فيه ملوحة خفيفة ولكنها مستملحة مقبولة محببة إلى نفس المؤمن.[٤١]

الصفا والمروة : شعائر السعي

عندما ترك إبراهيم عليه السلام هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام ونفذ ماؤهما وطعامهما اشتدت شفقة أم إسماعيل واعتلت جبل الصفا شرق موقع الكعبة المشرفة علها ترى قادما وهبطت الوادي باتجاه الشمال ثم سعت واعتلت جبل المروة الذي يقع شمال شرق الكعبة علها ترى قادما وكررت العمل سبعا كل شوط حوالي ٤٠٠م

وقد فرض الله السعي على الحاج والمعتمر بعد ذلك اقتداء بأم إسماعيل عليهما السلام حيث قال سبحانه﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم﴾ [البقرة،آية١٥٨]

المحيط العمراني للحرم المكي

تقع مدينة مكة المكرمة في بطون الأودية وعلى سفوح الشعاب المحيطة بها . والسفوح الجبلية التي تنتشر بينها هذه الشعاب شديدة الانحدار ولها تأثير كبير على الامتداد العمراني للمدينة . إن تطور مدينة مكة عبر القرون كان دائما مرتبطا ارتباطا وظيفيا بانحدار السفوح واتجاه الأودية وموضع السهول منها.[٤٢] ونظرا لضيق هذه السهول فقد قام العمران وانتشر على السفوح المطلة على الحرم الشريف . وذلك حرصا على البقاء بجوار الحرم ما أمكن ونظرا لعدم وجود وسائل المواصلات التي تسهم في انتشار العمران في المناطق البعيدة غير أنه منذ الأربعينيات من هذا القرن بدأ استخدام المواصلات الحديثة الأمر الذي أسهم في زيادة الانتشار العمراني وتوسعة الرقعة الأرضية التي تمتد عليها العاصمة المقدسة.[٤٣] وعلى الرغم من تأثير العوامل الطبيعية في تحديد الامتداد العمراني فإن الظروف الاقتصادية والاجتماعية كان لها الدور الأكبر في نمو المدينة على السفوح . وعلى هذا لم تكن العوامل الطبيعية هي التي فرضت الطابع الحضاري للمدينة وإنما كان تأثيرها يتناوب في أهميته مع العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، وعلى هذا لا نستطيع الجزم بأن هناك تأثيرات طبيعية منفردة وإنما هناك تأثيرات مشتركة للعوامل الطبيعية والظواهر الاقتصادية والاجتماعية مجتمعة في نسق واحد . ولهذا يمكن القول بأن هناك تأثيرا ملموسا للعوامل الطبيعية على تكوين ومظهر المدينة المقدسة فإذا ما أخذنا المناطق المعمورة بعين الاعتبار نجد أن التضاريس قد حددت شكل المدينة بوضعية خاصة تماثل الامتداد الطبيعي لمجموعة من الأودية مركزها المسجد الحرام. غير أن هذا التأثير العائق للنمو العمراني لم يكن عقبة كأداء أمام امتداد المدينة على السفوح . فقد قامت مشاريع الإسكان الخاصة والحكومية بتغيير الكثير من الظواهر التضاريسية وتسهيلها وجعلها صالحة للسكن . غير أن هذا لم يؤثر بطبيعة الحال على موضع المدينة الذي فرضته العوامل الطبيعية. فتسهيل السفوح والانتشار العمراني عليها لم يفقد العوامل الطبيعية سلطانها في تحديد الشكل العمراني للمدينة إذ أن الناظر لا يحتاج إلى الكثير من العناء لإدراك تأثير العوامل الطبيعية في تحديد مظهر المدينة وشكلها الذي يتطابق مع شكل الأودية والسفوح القائمة عليها . فشكل مدينة مكة المكرمة ومظهرها هو امتدادات أودية إبراهيم ، طوى ، فخ ، وأعالي وادي محسر (العزيزية ومنى) . إن المواصلات القائمة في المدينة المقدسة فرضتها شبكة التصريف المائي السابقة الذكر فشوارع مكة المكرمة الرئيسية منها والفرعية هي بطون الأودية والشعاب التي قامت عليها المدينة . ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا بعض الطرق القصيرة التي ربطت أحواض تصريف هذه الأودية بعضها ببعض عن طريق فتح العقبات وبناء الجسور أو عن طريق الأنفاق . ولم تكن هذه إلا في العقدين الماضيين مما يبرز التأثير الكبير للعوامل الطبيعية في الهيمنة على طرق مواصلات المدينة المقدسة مما يمكن معه القول بأن هناك ارتباطا طرديا بين وجود الأودية

والشعاب ووجود طرق المواصلات . أما في المناطق الجبلية وعلى السفوح فقد فرضت وعورة المنطقة واكتظاظها العمراني نمطا خاصا من طرق المواصلات يمتاز بضيق المسالك والدروب من ناحية كما يمتاز باستعمال درج الصعود الحجرية من ناحية أخرى. ومن هذا يستخلص أن العوامل الطبيعية كمحدد عمراني قد تظهر من خلال العرض التحليلي للعوامل الطبيعية الثلاث وهي : التضاريس والحرارة والسيول التي تثبت النقاط التالية:

١- إن شدة انحدار السفوح كانت عائقا في الامتداد العمراني للمدينة إلا في منطقة المسجد الحرام.

٢- إن امتداد العمران فرضته شبكة الأودية في المدينة .

٣- إن امتداد السلاسل الجبلية في المدينة فرض تطورها على شكل خلايا منعزلة قائمة بين شعاب هذه الجبال وسفوحها غير أن هذه العزلة قد زالت بافتتاح الأنفاق الموصلة بين هذه الخلايا .

٤- إن تصور الناس في مكة عن وجود انخفاض نسبي في درجة حرارة بعض المناطق المحيطة بمكة نتيجة تيارات هوائية ناجمة عن انفتاح هذه المناطق ساعد على الامتداد العمراني في تلك المناطق قبل غيرها .

٥- لقد كانت السيول عائقا أخر للامتداد العمراني في المناطق البعيدة عن الحرم أما في المناطق المحيطة بالمسجد الحرام فقد انعدم تأثير هذا العامل.

المدينة المنورة والمسجد النبوي

تقع المدينة المنورة في الجزء الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية على خط عرض ٢٨ ٢٤ شمالا" وخط طول ٣٦ ٣٩ شرقا" وتبعد حوالي ٤٠٠كم شمالي مكة المكرمة، وتبعد عن البحر الأحمر بحوالي ١٥٠كم وتقع على هضبة متوسطة الارتفاع يصل ارتفاعها إلى٦٠٠ متر عن سطح البحر. تحيط بالمدينة المنورة الجبال والحراري(الحرات)، ففي الشمال الغربي منها جبل سلع وهي محصورة بين لابتين أو حرتين بركانيتين، حرة واقم في الشرق، وحرة الوبرة في الغرب، وإلى الشمال يقع جبل أحد، وفي الجنوب الغربي جبل عير.[٤٤] ويكتنف المدينة ثلاثة أودية هي وادي بطحان الذي يأتي من جنوبي المدينة المنورة ويمر وسطها، ويعرف هذا الوادي باسم (أبو جيدة). أما وادي العقيق جنوب غرب المدينة والذي يزيد طوله على ١٥٠ كيلومترا" فيسمى أعلاه بالنقيع ويسمى بالعقيق في ذي الحليفة، ويأتي وادي قناة من جهة الشرق (أي من جهة العاقول) وتتجه أودية المدينة جهة الشمال الغربي حيث تلتقي في زغابة.[٤٤] وكانت المسافات المحصورة بين المدينة و الحرات الشرقية، وبين المدينة وقباء عبارة عن واحات خضراء أثرت بشكل واضح على مناخ المدينة.

ومناخ المدينة المنورة صحراوي جاف صيفا" دافئ شتاء" ويزيد متوسط الحرارة العظمى على ثلاثين درجة مئوية، ولا يقل متوسط درجة الحرارة الصغرى السنوي عن عشرين درجة مئوية، وأشد شهور السنة حرارة يوليو وأغسطس، وأقلها حرارة ديسمبر ويناير. وترتفع الرطوبة النسبية قليلا" في فصل الشتاء لتصل٤٥ في المائة. تهطل الأمطار عادة على المدينة في فصل الشتاء، وتختلف كميات المطر من سنة إلى أخرى. وتتعرض المدينة المنورة للعواصف الرملية والرياح المتربة بسبب الصحاري التي تحيط بها، ويكون اتجاه الرياح في فصل الربيع وبداية الصيف من جهة الغرب وفي فصل الشتاء يغلب الاتجاه الشرقي.[٢٠]

فالمدينة المنورة مدينة قديمة ذكرها (المعينيون) في كتاباتهم باسمها القديم (يثرب) وفي ذلك دليل على وجودها خلال الألف عام الأولى وقد اكتسبت المدينة المنورة أهميتها من أسباب متعددة ومجتمعة منها توفر المياه بها وخصوبة أرضها ووفرة إنتاجها وتيسر الوصول إليها عبر خطوط طبيعية من تهامة ونجد والحجاز ووقوعها على خط التجارة القديم بين الجنوب والشمال والشرق ولوجود أسواق تجارية هامة بها للتبادل بين القبائل.[٢٠]

تعتبر قرية (العيون) شمال المدينة الحالية أقدم المواضع التي سكنت في المدينة المنورة لكثرة مياهها وعيونها وموقعها بين جبل أحد ووادي قناة ويليها قرى قباء وقربان والعوالي في منطقة مربعة بها آثار حصن قديم (حصين النصف) وسوق (بني قينقاع) وبقايا دور وآبار مطمورة. [٤٤]
وكانت مساكن المدينة المنورة ذات نظام وتخطيط خاص معروف (بالأحياء الخاصة) وهي أشبه بالحواري الخاصة المقفولة في كثير من مدن الحجاز ولكنها كانت مستديرة مقفولة على نفسها بسور وفي وسطها حوش كبير فيه البئر ويستخدم مأوى للماشية وبه بعض النخل والزراعة البسيطة.[٤٥]

وقد ازدادت أهمية المدينة المنورة بعد أن أمر ﷺ صلوات الله عليه وآله وسلم وأصحابه بالهجرة إليها حيث شع منها نور الإسلام حتى أصبحت العاصمة السياسية لدولة الإسلام. وفي عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين أصبحت أهم مدينة في المنطقة كلها، وعاصمة لدولة مترامية الأطراف. والمدينة المنورة هي المدينة الثانية بعد مكة المكرمة العاصمة الدينية للعالم الإسلامي بما فيها من مجاورين للحرم النبوي وأئمة وحفظة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.[١٥] وقد أدى ذلك في النهاية إلى أن تصبح عاصمة للجزيرة العربية كلها سياسيا ودينيا وثقافيا واقتصاديا ولكن ذلك لم يدم طويلا فقد انتقلت العاصمة مع احتدام الصراع السياسي إلى الكوفة ثم إلى دمشق وبغداد.

أول مسجد في الإسلام

والمسجد بكسر الميم الحصير الصغير، قالها ابن منظور في لسان العرب.[٣٧] وأما عرفا فكل موضع من الأرض لقوله ﷺ: "جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا". ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشتق اسم المكان منه فقيل مسجد، ولم يقولوا مركع. ثم إن العرف خصص المسجد بالمكان المهيأ للصلوات الخمس حتى يخرج المسلمون إلى المصلى ذلك المجتمع الذي تتم فيه صلاة الأعياد ونحوها، فلا يعطى حكمه، وكذلك الربط والمدارس فإنما هيئت لغير ذلك.
المسجد الأول الذي بني في دار الهجرة (المدينة المنورة) عندما وصلها الرسول الكريم ﷺ هو مسجد قباء شمال غرب المدينة ، وهو ثابت في أوليته بنص قرآني ﴿ ...لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾ [سورة التوبة، آية ١٠٨] في قلب قرية قباء وأصبح الآن داخل المدينة المنورة

بعد توسعتها إثر توسعة المسجد النبوي الشريف وقد مرت عليه مجموعة من التوسعات ووصلت مساحته الإجمالية الآن إلى ٤٥٠٠ مترا مربعا تقريبا ويتسع إلى ثمانية آلاف مصل.[٤٠]

وقد كان أصل مسجد قباء مربدا لكلثوم بن الهدم، وقد أسسه الرسول ﷺ بني عمرو بن عوف ويرجح أن يكون المسقط الأصلي عبارة عن قطعة أرض مربعة أحيطت بسور من الحجر أخذ من الحرة المجاورة ومن المؤكد أنه لم يكن به أروقة مغطاة عند الإنشاء حيث أن الفترة التي قضاها الرسول ﷺ كانت قصيرة (أربعة أيام) ولا تسمح بعمل سقيفة إلا أن السمهودي نقلا عن ابن زبالة أشار إلى أن المسجد كان به على زمن الرسول ﷺ أي بعد ذلك صفة من سبعة أساطين (يرجح أن تكون رواقا واحدا) وقد زيد في المسجد على زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه.[١٠]

وهدم المسجد وأقامه بعد توسعته عمر بن عبد العزيز عندما كان واليا على المدينة المنورة في عهد الوليد بن عبد الملك وقد توالت على المسجد ترميمات وإصلاحات و إعادة بناء كان آخرها في عام ١٤٠٠هـ في عهد الملك خالد بن العزيز رحمه الله تعالى عندما رمم كامل المسجد.

المسجد النبوي

مكونات المسجد النبوي:

من المؤكد أن تصميم المسجد النبوي على عهد الرسول ﷺ قد وضع اللبنة الأولى في تصميم المساجد الإسلامية ألا وهو فراغ مفتوح محدد ثم أضيفت له ظلة فوق صفوف أعمدة عبارة عن سقف باتجاه القبلة (ظلة شمالية باتجاه بيت المقدس وظلة جنوبية باتجاه الكعبة) مع صحن كبير عبارة عن فضاء إما من جهتيه أو على الأقل جهة واحدة لاتجاه القبلة.[١٢] نشاهد هذا المسقط في المسجد الأول في البصرة (١٤هـ - ٦٣٥م) والكوفة (١٧هـ - ٦٣٨م) وعمرو بن العاص في الفسطاط ٢١هـ(٦٤٢م) والقيروان ٥٠هـ (٦٧١م) و لم يتحول مسقط المسجد النبوي إلى صحن محاط بأروقة إلا عند إعادة بنائه في عهد الوليد بن عبد الملك على يد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ٨٨-٩١هـ (٧٠٤- ٧٠٧م) وفي هذه الفترة ظهر أول محراب مجوف في عمارة المساجد إلا أنها كانت في السابق محاريب مسطحة.[٢٧] وتسمى اصطلاحا العنزة كما نراها الآن في مسجد القرويين بفاس. وقد بنى الرسول ﷺ تسع حجرات لأزواجه المطهرات شرق المسجد.

لم يكن المسجد النبوي في عهد الرسول ﷺ في فجر الإسلام كما نراه الآن بدأ بسيطا ثم توسع عبر القرون ملبيا حاجة المصلين بعد أن أقره ولاة الأمر والعلماء من المسلمين كما أن المظهر (المحسوس) للمسجد نتج عن تمازج الثقافات وتطور تقنية المباني وخاماتها عبر العالم الإسلامي ونتيجة لهذه التطورات المتتالية أصبحت هناك مكونات أساسية للمسجد نلخصها فيما يلي:

الظلة : جعل النبي ﷺ لمسجده في المدينة المنورة ظلتين: ظلة القبلة (الجنوب) وظلة الشام (الشمال) وجعل بين هاتين الظلتين رحبة تفصل بينهما وهذه الرحبة هي التي تحولت في المسجد إلى ما يعرف باسم الصحن أو الحصوة. وظلة المسجد وهو القسم المسقوف من المسجد ويقع ناحية القبلة وقد وجدت الظلة مع مسجد الرسول ﷺ في المدينة ظلة الشام عندما كانت قبلة المسلمين بيت المقدس وظلة الجنوب الآن عندما تحولت القبلة إلى الكعبة المشرفة وتسمى ظلة القبلة وتحوى الروضة الشريفة. وفي ظلة مسجد رسول الله ﷺعناصر وضعها بنفسه ﷺأهمها: جدار القبلة، المنبر، الصفة والسواري، وقد أضاف خلفاء المسلمين عناصر ملحقه بالظلة مثل المحراب والمقاصير والأساطين (الأعمدة) تعلو سقفها سقوف جذوع النخل والطين أو القباب أو الخرسانة المسلحة.

الروضة النبوية المطهرة : في الصحيحين حديث عبد الله بن زيد المازني رضي الله عنه "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة" زاد البخاري من حديث أبي هريرة : "ومنبري على حوضي". وبقدر ما بين المنبر والبيت الذي فيه القبر الآن.

الحصوة: صحن المسجد و الصحن لغة هو ساحة الدار، وللمسجد رحبته وهو القسم غير المسقوف فيه ويعتبر امتدادا لمكان الصلاة ويستوعب المصلين الذين ضاق بهم مكان الصلاة والحصوة قديمة عهد بالمسجد النبوي إذ هي المنطقة الفاصلة بين الظلتين (الظلة الشمالية والظلة الجنوبية). إذ اهتم صلاة الله وسلامه عليه وأصحابه بالمسجد وعزل المصلين عن الجلبة الخارجية التي قد تصرف الناس عن التفرغ للعبادة والإصغاء إلى ما يتلى من كتاب الله أو الخطب فلم يكن في المسجد النبوي أو أي من المساجد الأولى في الإسلام نوافذ أو شرفات.[٢٣]

العناصر الملحقة بالمسجد النبوي

المحراب: ويعتبر من أهم عناصر المسجد وهو الحنية المجوفة في جدار المسجد جهة القبلة ، والقبلة هي الاتجاه نحو الكعبة وليس ضروريا أن يكون المحراب حنية وإنما يكفي تعيين موضعه في جدار صدر المسجد وفي بعض المساجد الأولى وضعت علامة تشير إلى المكان الذي يقف فيه الإمام والراجح أن المسجد في عهد الرسول ﷺلم يكن به محراب.

جدار القبلة: يعتبر تحديد جدار القبلة في المسجد النبوي الشريف معجزة نبوية تتراءى للمرء على مر الزمان إذا أن المسافة البعيدة بين الكعبة المشرفة وموقع مسجد رسول الله ﷺ تزيد عن ٤٥٠ كلم وتم تحديد القبلة دون الرجوع إلى أي آلة مساحة حيث زوى جبريل عليه السلام الأرض ورأى رسول الله ﷺ الكعبة نصب عينيه وحدد جدار القبلة بنفسه.

المنبر: هو مرتفع مواجه للمصلين يرتقيه الخطيب ويخبرنا رواة الحديث أن الرسول ﷺ كان يقف أول الأمر ويستند إلى جذع نخلة في المسجد عندما يلقي خطبته فاقترحت عليه إحدى الصحابيات أن يصنع له ابنها النجار منبرا من الخشب فاستجاب ﷺ لهذا الطلب بأن صنع له منبرا من ثلاث درجات مرتفعة كي يراه الناس وعندما اعتلى ﷺ صلوات الله وسلامه عليه المنبر الجديد ذي المراقي حن الجذع و لم يسكت عن الحنين حتى وضع عليه يده الشريفة فسكت.

الصفة: وهو مكان مرتفع اتخذه صحابة رسول الله ﷺ شمال الروضة الشريفة للعبادة وتلقي أخبار الوحي وتبليغه لمختلف أحياء المدينة المنورة لأن المصطفى ﷺ كان يخبر من في المسجد حال نزول الوحي عليه وقد امتدح الله أهل الصفة بقوله ﴿ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيوة الدنيا﴾ .[الكهف،آية٢٨]

المقصورة: هي حجرة بنيت في صدر المسجد على يمين القبلة أو يسارها وهدفها حماية إمام المسلمين من الأخطار و لم تكن معروفة في أوائل عهد المسلمين ويرى بعض المؤرخين أن أول من اتخذ المقصورة لصلاته هو الخليفة عثمان بن عفان في مسجد الرسول ﷺ ولا تحتوى الكثير من المساجد على هذه المقصورة.[٢٣]

المكبرية: وهي السدة أو المسمعة وهي السقيفة التي تبنى في حائط المسجد قبالة المحراب والمنبر وتكون عادة من الخشب وترفع فوق ارض المسجد على أعمدة عالية ثابتة. . والغرض منها على هذا النحو هو تمكين المؤذن من متابعة الركوع والسجود والقيام فيرفع صوته بالتكبير والتحميد بعد الإمام كي يسمع المأمومين البعيدين تكبيرته وقد عرفت المكبرية في مسجد الرسول ﷺ منذ توسعة الوليد بن عبد الملك.[٤٤] و لم يعرف أن أحدا بنى مكبرية نقالة على نحو ما عهد عن بعض المنابر والمحاريب.

المئذنة: أو المنارة وهي البناء المرتفع الذي يرتقيه المؤذن ليبلغ ويرفع الأذان للصلوات الخمس. و لم تكن المئذنة المرتفعة معروفة في عهد النبي ﷺ ولا في زمن الخلفاء الراشدين إلا أن أساسها وهو الآذان من مكان مرتفع كان معمولا به أيام الرسول ﷺ وترجح روايات المؤرخين أن الخليفة معاوية رضى الله عنه هو أول من أشار ببناء المآذن.[١] وأصبحت المئذنة جزءا متمما للمسجد ، ارتقت عمارتها بشكل سريع وأصبحت لها أشكال هندسية متنوعة مع تجميلها وتزيينها بالزخارف والنقوش والتفنن في بنائها وأصبحت في الوقت الحاضر أداة لحمل مكبرات الصوت بالإضافة إلى أنها عنصر دلالة للمسجد .

الميضأة: وهي المكان المخصص للوضوء حيث أن الصلاة لا تجوز من غير وضوء ولهذا كانت الميضأة ووجود مراق صحية ضرورة في كل مسجد.

وقد كانت الميضأة في المساجد القديمة غالبا ما تكون في أحد جوانب الصحن بعيدا عن مكان الصلاة وتأتي على شكل حوض كبير يتحلق الناس حوله ويتوضئون بمياهه المنقولة من الآبار أو المتدفقة من الزلاقات، وهذا طبعا قبل أن تتطور أمور التغذية بالمياه والصرف الصحي لها. كما تفنن المسلمون في تصميم الأدوات الصحية التي توفر شروط الطهارة البدنية من الأوساخ والقاذورات إلى وقتنا الحاضر.

الجدران وأساليب الإنشاء: بنى ﷺ جدران المسجد من اللبن المجفف وقد بنى في المرة الأولى من لبنة ونصف وفي المرة الثانية من لبنتين.

تنظيف الموقع: منذ أن وقع اختياره ﷺ على الموقع أمر الصحابة بتنظيفه من الأوساخ والحشائش والقبول والمياه الراكدة ثم بعد ذلك حفر الأساس وأسس بالحجارة.

السواري: وتسمى الأساطين أو الأعمدة وتبنى من جذوع النخل أو الأشجار أو الطين أو الحجر أو الحديد أو الخرسانة المسلحة. وقد بنى ﷺ سواري مسجده من جذوع النخل ثم ادخل عليها الخليفة الراشد عمر رضي الله عنه تعديلا فبناها بالحجر. وقد ذكر أن الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان واليا على المدينة عنه بناها من الحديد. ،وكان عبد الملك بن مروان قد جعل على رؤوس الأساطين صفائح الذهب وآزر داخل المسجد بالرخام وزينه بالفسيفساء .

الأسقف: بنى الرسول ﷺ سقف مسجده من الطين المحمل على عروق من جذوع النخل ثم أدخل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه الساج بدل عروق النخل لتحمل السقف الطيني وبعد ذلك استخدمت طبقتان من التسقيف أحدهما تجميلي والآخر وظيفي في عهد الخليفة العباسي المهدي وبعد ذلك ادخل السلاطين العثمانيون القبة عند بناء المسجد النبوي.

وبناؤها محدب على شكل نصف كرة وقد تتخذ القبة الشكل البيضاوي أو المخروطي أو الحلزوني أو البصلي.

وقد حلت أعمدة وأسقف الخرسانة المسلحة محل أساطين الحجر والقبب في تسقيف التوسعات السعودية الحالية للمسجد النبوي الشريف.

الخلاصة

اقتضت حكمة الله أن يجمع الموحدين من البشر على قبلة واحدة فأوحى إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام أن يقيم قواعد البيت العتيق بعد اندراس طويل وليعيد بناء أول بيت يذكر فيه اسمه وليكون مثابة للناس وأمنا تشد الناس إليه الرحال من كل فج عميق ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾. [سورة الحج، آية ٢٨]

وقد شاء الله تعالى أن يبقى هذا البيت مصدرا للإشعاع والنور الرباني منذ أن أقيمت قواعده إلى أن تقوم الساعة ، وجاءت الرسالة المحمدية بحكم أنها خاتمة الرسالات لتقر هذا المعنى وتؤكد هذه الحقيقة إذ أمر المولى تعالى رسوله الكريم بالتوجه إليه في الصلاة بعد أن توجه إلى بيت المقدس ما يقرب من ستة عشر شهرا وذلك ليعيد لأمة التوحيد متمثلة في الأمة المحمدية قيادة ركب البشرية وهدايتها حيث يقول تعالى: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾. [الحج، آية ٧٨]

فلا غرو بعد هذا أن تكون قبلة أبي الأنبياء "إبراهيم خليل الرحمن " رمزا للتوحيد ومظهرا حقيقيا للإيمان تشرئب إليها القلوب ، وتتطاول إليها أعناق المسلمين لأنها مظهر وحدتهم وسر اجتماع كلمتهم ومحور شعائرهم وقد أكد القرآن الكريم هذه المعاني في قوله تعالي : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾. [البقرة، آية ١٤٤] وبعد الفتح العظيم لمكة في العام الثامن الهجري وتحطيم الأصنام وبراثن الشرك أعيد للبيت العتيق رسالته الصحيحة وكان الحج ركنا أساسيا من أركان الإسلام لا يكتمل إسلام المرء بدونه. ومن ذلك التاريخ تصدرت مكانة الحرم المكي وأخذت الكعبة المشرفة أهميتها البارزة في عقيدة المسلمين وسائر عباداتهم. عاش النبي في المدينة المنورة يرسي قواعد الدولة الإسلامية متخذا من مسجده الشريف مقرا لإدارة الدولة ومدرسة فكرية لتربية أصحابه يزاولون فيه شعائر عباداتهم ويتلقون من نبيهم تعاليم دينهم إلى أن استبان المنهج واكتملت الرسالة و لم يعد سوى أن يتابع رجاله السير على هداه وبعدها لحق رسولنا الكريم بالرفيق الأعلى تاركا لنا ميراث نبوته في كتاب الله وسنته المشرفة.

ومن هذا المنطلق احتل مسجد الرسول الكريم ﷺ في طيبة الطيبة في حياته وبعد مماته مكانته المقدسة في قلوب المسلمين جميعا وصار المسجد النبوي ثاني الحرمين الذي تشد إليه الرحال من كل فج عميق ليشارك الحرم الأول رسالته السامية في تعميق مشاعر الإيمان في قلوب المؤمنين .

وإيمانا بأهمية رسالة كل من الحرمين الشريفين حرص خلفاء المسلمين ومن جاء بعدهم من الحكام على إبقاء هذه الرسالة حية ومتجددة على الدوام تؤتي أكلها وثمارها في كل حين وذلك برعايتهما وصيانتهما من كل حركة معادية أو اتجاه هدام لأن إلحاق ضرر – لا قدر الله – مهما كان نوعه أو درجته يمس الحرمين من قريب أو بعيد إنما هو ضرر يمس قبل كل شئ عقيدة المسلمين ويوهن من مشاعرهم وشعائرهم ويؤدي إلى تمزيق وحدتهم التي من الله عليهم بها في قوله تعال﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾. [آل عمران، آية ١٠٣]

وإن كانت خدمات حكام المسلمين من خلفاء راشدين وخلفاء أمويين وعباسيين وسلاطين عثمانيين وأئمة وملوك سعوديين إزاء هذين الحرمين عبر فترات التاريخ الإسلامي قد تنوعت فشملت السقاية والرفادة وكسوة الكعبة ، والتوسعة والبناء والترميم وفرض النظام والأمن وجميعها بلا شك خدمات جليلة يشهد بها التاريخ في الماضي ويقرها الواقع اليوم، فإن هناك بجانب هذه الخدمات رعاية أخرى أسمى وأعمق يواجه بها بكل حزم وقوة تلك الاتجاهات المضلة والنحل الضارة التي أرادت أن توهن من قدر هذه المقدسات وأن تبعد أنظار المسلمين عنها إلى أماكن أخرى مزعومة ومراكز فكرية تبث سمومها الإلحادية ضد معتقد المسلمين وتغزو عقولهم غزوا فكريا يصعب انتزاعه. أن مثل هذه الرعاية تعد أسمى أنواع الرعاية وأنفعها وسوف تعود بالخير على المسلمين من جهة أخرى حتى يظل التأثير بين الطرفين باقيا وتظل المناعة الوقائية للحرمين ضد شتى الحملات العدائية قوية وباقية. وعندما تهيأ للحرمين أداء دورهما على هذا النحو انسابت آثارهما قوية في نفوس المؤمنين تعصمهم من كل بدعة أو انحراف وتصحح المعتقد كلما طرأ عليه من الظواهر والمتغيرات ما يحيد به عن المنهج الرباني فإنه لا يسوغ لأحد من أهل التوحيد أن يشد رحاله إلى غير الحرمين والمسجد الأقصى. كما ينبغي أن تمتد حركة التصحيح بوسائلها المختلفة من هذين الحرمين إلى الطوائف المخالفة لهذا الحكم الإسلامي لأن هذين الحرمين مصدران للإشعاع الإيماني الذي يواجه كل باطل وانحراف.

و لم تقتصر رسالة الحرمين على توفير مكان للعبادة للمسلمين من مختلف أصقاع الأرض فقط وإنما لمن يقوم بخدمتهما دور قيادي باعتباره الممثل الشرعي للمسلمين والجامع لكلمتهم والمعبر عن آمالهم. وهذا الدور الطليعي ينبغي أن تأتي ثماره في المجالين الإسلامي والدولي وعلى كافة محاور الأنشطة الدينية والسياسية والتعليمية والاجتماعية والاقتصادية. وهذا الدور الطليعي الذي يضطلع به من يقوم بخدمة الحرمين ليس هو وليد اليوم وإنما هو تكليف شرعي شرف الله به كل من قام بخدمتهما في كل عصر منذ أن قامت دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة إلى أن يشاء الله. إن الحرمين الشريفين ليسا نصبين تذكاريين وإنما هما معنيان من المعاني الخالدة لا تقوم للمسلمين قائمة بدونهما بل لا تكتمل الشخصية القانونية والشرعية لدولة إسلامية كبرى تجمع المسلمين جميعا إن لم يكن الحرمان الشريفان رمزا لها . ولنا في رسولنا الكريم والخلفاء الراشدين من بعده الأسوة الحسنة فقد اتخذوا من مسجد الرسول ﷺ مقرا لإدارة الدولة الكبرى التي أقاموها. وقد أدى المسجد النبوي دوره كاملا دون نقصان إذ انبعثت منه المؤثرات الدينية الصحيحة إلى كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ومنه عقدت ألوية المجاهدين الذين انتشروا في الأرض لتمكين منهج الله وإليه وفدت وفود الأمم ومبعوثوها لعقد المعاهدات والهدن وإبرام الصلح .كما كانت تفد إليه وفود الأمصار الإسلامية برئاسة ولاتها لأداء فريضة الحج وزيارة المسجد النبوي ثم يلتقون بالخليفة ليتلمس مشكلات المسلمين في بلادهم البعيدة ويطمئن إلى عدالة الحكم وإيصال الحقوق إلى أصحابها إنه بحق دور ريادي لراعي شئون الحرمين الشريفين ينطلق من المصلحة العليا للمسلمين بصفته الممثل الشرعي لهذه الأمة، والقادر على توصيل هذه المثل إلى جميع المسلمين في بقاع الأرض، والحارس على سلامتها من كل بدعة أو اتجاه هدام .

كان الحجاج يلاقون أنواعا متعددة من الأذى ولا يستطيعون السير إلى مكة وحدهم حيث كان قطاع الطرق يتربصون بهم في كل حدب ومن فوق كل جبل، لذا كانت قوافل الحجاج تضم مئات الرجال المتأهبين لأي طارئ. وبعد تأسيس المملكة العربية السعودية في عام ١٣٥١هـ صار الحاج ينطلق من أي مكان في المملكة إلى مكة مع صحبه وقلوبهم مطمئنة .

تقف مشاريع توسعة وعمارة الحرمين الشريفين صروحا إسلامية شامخة وشاهدا على ما تقوم به الحكومات من أعمال جليلة تهدف إلى خدمة الإسلام وراحة واطمئنان المسلمين الذين يفدون على الأراضي المقدسة من كافة أنحاء العالم لأداء فرائض الحج ومناسك العمرة والزيارة . جاء اهتمام ولاة الأمر لتوسعة وعمارة الحرم المكي والمسجد النبوي الشريف منذ أول توسعة للمسجد الحرام قام بها الخليفة عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان وقد أنفرد عبد الله بن الزبير بتوسعة وعمارة الحرم المكي الشريف والتوسعة الرابعة للمسجد النبوي الشريف التي انفرد بها الوليد بن عبد الملك وتلتها توسعات أخرى للمسجد الحرام والمسجد النبوي قام بها في خلال العصر العباسي إبي جعفر المنصور تلاه أبنه محمد المهدي المعتضد وقد توجت هذه التوسعات بتوسعة الخليفة المقتدر فقد قام بتوسعة أجزاء عرفت بالزيادات للمسجد الحرام والمسجد النبوي قام بها ثم السلطان سليم الثاني بعدها توسعة الملك سعود التي أمر بها المؤسس الملك عبد العزيز طيب الله ثراه وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز. أما بالنسبة للمسجد النبوي الشريف فقد عمر بعد توسعة المهدى على أيدي السلاطين الجراكسة بعدها أتت عمارة وتوسعة السلطان عبد المجيد العثماني التي نرى آثارها في الجزء الجنوبي من المسجد. وفي بداية حكم الملك عبد العزيز وضع أسس وجذور أعمال العمارة والتوسعة حيث بدئ بالتوسعة في حياة الملك عبد العزيز وأتمها الملك سعود ثم بدأ الملك فيصل بالتوسعة الثانية والملك خالد بالتوسعة الثالثة التي وضعهما موضع التنفيذ توسعة خادم الحرمين الشريفين الشاملة التي غطت جميع محيط المدينة المشورة . كل هذا من أجل راحة وطمأنينة الأعداد المتزايدة من الحجاج والوافدين على الأماكن المقدسة في المملكة العربية السعودية لأداء مناسك الحج والعمرة والزيارة.

تبين الدراسة أن الطاقة الاستيعابية لمساحة الحرم المكي والمسجد النبوي الشريف تصبح تفوق القدرة الاستيعابية لها الشيء الذي يجعل ولاة الأمر على مر التاريخ يبدون شخصيا اهتماما بالغا بالأمر أو من ينوبونهم باستمرار متابعة مراحل العمل. تعد مشاريع التوسعات التاريخية والمشروعات المكملة الأخرى في منطقة المشاعر المقدسة في مقدمة ما أنجزته الدول الإسلامية في مجال خدمة الإسلام والمسلمين وينبع ذلك من اهتمام ولاة الأمر بعمارة المسجد أي كان مكانه وخاصة الحرمين الشريفين من إيمانهم الراسخ بأن هذا العمل الجليل علاوة على أنه شرف عظيم في الدنيا فله من عند الله الثواب الجزيل.

المراجع

[١] السمهودي, نور الدين على بن أحمد. *وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفي*. أربعة أجزاء، الطبعة الثانية، بيروت: ١٩٧١.

[٢] الأزرقي، محمد بن عبد الله بن احمد. *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار*. مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٣٩٨هـ.

[٣] ابن النجار، محمد بن محمود. *الدرة الثمينة في أخبار المدينة*. قابله واعتنى به حسين محمد على شكري، المدينة المنورة: دار المدينة المنورة للنشر والتوزيع, ١٤١٧هـ.

[٤] على بن موسى. "وصف المدينة المنورة في سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م." *رسائل في تاريخ المدينة*، الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٩٢هـ.

[٥] الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير. بيروت: التراتيب الإدارية، ١٩٧١م, ص ص ٧٧- ٧٨.

[٦] جاهين، مصطفى أمين. "مكة المكرمة في التاريخ." *الدارة*، العدد الأول، السنة الحادية عشر، شوال ١٤٠٥هـ، ص.ص ٢١٧-٢٢٥.

[٧] العبد المحسن، إبراهيم بن عبيد. *تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان*. الرياض: مطابع مؤسسة النور للطباعة والتجليد ، دون تاريخ (٥ أجزاء).

[٨] عباس، حامد. *قصة التوسعة الكبرى*. جدة: مجموعة بن لادن السعودية، ١٤١٧هـ

[٩] الطلحي، محمد محمود سيد برياني. *الحرمان الشريفان بين الماضي والحاضر*. جدة: دار المعراج للنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ.

[١٠] الخياري، أحمد ياسين أحمد. *تاريخ معالم المدينة المنورة قديما وحديثا*. جدة: مطابع مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم)،١٤١٤هـ.

[١١] آل سعود، هيا بنت محمد بن عبد العزيز. *توسعة الحرمين الشريفين في عهد الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود*. القاهرة: شركة سنترلاين،١٤١٦هـ.

[١٢] الأنصاري، محمد حسن عبد القادر. *عمارة وتوسعة المسجد النبوى الشريف عبر التاريخ*: المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدب، ١٤١٦هـ.

[١٣] هورخرونيه، سنوك. *مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري*. نقلة إلى اللغة العربية وعلق عليه: محمد بن محمود السرياني ومعراج بن نواب مرزا وراجعه محمد بن إبراهيم احمد على، مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤١١هـ.

[١٤] اتحاد المهندسين الاستشاريين (باكستان)، *المسجد الحرام (٣ أجزاء) وزارة المالية والاقتصاد الوطني*، الرياض، ١٣٩٧هـ.

[١٥] آل مشاري، منى حسن محمد مقرن. *المجاورون في مكة والمدينة في العصر المملوكي (من ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م إلى ٩٢٢هـ-١٥١٧م)*. رسالة ماجستير في التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض: ١٤٠٩هـ.

[١٦] اتحاد المهندسين الاستشاريين (باكستان). *مشروع جلالة الملك عبد العزيز لتوسعة وعمارة المسجد الحرام: المعلومات والوثائق والبيانات والخرائط الهندسية للمشروع*. الرياض: وزارة المالية والاقتصاد الوطني، ١٣٩٧هـ.

[١٧] الحجي، محمد صالح بن احمد زين العابدين الشيبي العبدري. *إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام*. تحقيق إسماعيل أحمد إسماعيل حافظ، مكة المكرمة: مطبوعات نادي مكة الثقافي، ١٤٠٥هـ.

[١٨] الأنصاري، عبد الرحمن بن عبد الكريم. *تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب*. تحقيق محمد العروسي المطوي، تونس: المكتبة العتيقة، ١٩٧٠م.

[١٩] زغروت، محمد. *رؤية فكرية وتاريخية لرعاية الحرمين الشريفين وحمايتهما من الحركات المعادية*. الرياض: دار المعراج للنشر والتوزيع ، ١٤١٢هـ.

[٢٠] إدريس ، عبد الله بن عبد العزيز. *مجتمع المدينة المنورة وتنظيم القبائل سياسيا واجتماعيا في عصر الرسول* محمد ﷺ . رسالة ماجستير في التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود، ١٣٩٩ هـ.

[٢١] عنقاوي، سامي. "التطور التاريخي للمسجد الحرام وبناء الكعبة المشرفة." *جريدة المدينة*, تغطية خالد على المطرفي ، العدد ٧٣٩٢ في ٢٩ ذو القعدة ١٤٠٧ هـ والعدد ٧٣٩٣ في ١ ذو الحجة ١٤٠٧هـ

[٢٢] الكردي، محمد طاهر. *التاريخ القويم لمكة وبيت الله القويم*، مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة ١٣٨٥هـ - ١٤٠٠م.

[٢٣] الحسيني ، الشريف احمد محمد صالح. *نبذة من تاريخ المسجد النبوي العمراني*. جده: مطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر, ١٤٠٦ هـ.

[٢٤] السخاوي، شمس الدين. *التحفه اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة*. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ.

[٢٥] القطبي ، عبد الكريم بن محب الدين. *إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام*. الرياض: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٤٠٣هـ.

[٢٦] باسلامه، حسين عبيد الله. *تاريخ عمارة المسجد الحرام*. جدة: تهامة، ١٤٠٠هـ (الطبعة الثالثة).

[٢٧] الوكيل، محمد السيد. *المسجد النبوي عبر التاريخ*. جده:ة دار المجتمع للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ.

[٢٨] الفاسي. *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*. مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، ١٣٧٦هـ.

[٢٩] مطر ، فوزية حسين. *تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف*. جدة: تهامة، ١٤٠٢هـ.

[٣٠] البتنوني، محمد لبيب. *الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر*. القاهرة:مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ .

[٣١] الصاوي، أمينة. "الكعبة المشرفة." *كتاب اليوم*. العدد ٢٨٢، القاهرة: مايو ١٩٨٨.

[٣٢] وزيري، يحيى. *خواطر الشعراوي حول عمران المجتمع المسلم*. القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٩٠م.

[٣٣] ابن منظور، محمد بن مكرم. *لسان العرب المحيط*.

[٣٤] ابن دهيش، عبد الملك. *أعلام الحرم المكي*. مكة المكرمة: ١٤١٥هـ.

[٣٥] الخربوطلي، على حسين. *تاريخ الكعبة*، بيروت: دار الجبل، ١٤٠٨هـ.

[٣٦] الأنصاري ، عبد القدوس. *التاريخ المفصل للكعبة المشرفة قبل الإسلام*. مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤٠٣ هـ.

[٣٧] ابن هشام، محمد بن عبد الملك. *السيرة النبوية*. (تحقيق مصطفى السقا). القاهرة: ١٤٠٦هـ.

[٣٨] احمد، مهدي رزق الله. "عمارة الكعبة عبر دراسة تاريخية تحقيقة." *الدارة*، العدد الأول ، السنة الرابعة والعشرون ، ١٤١٩هـ ، ص ص. ٦٣-١٣٩.

[٣٩] ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل. *تفسير القرآن العظيم*، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٨هـ

[٤٠] إبراهيم, رفعت. *مرآة الحرمين في الرحلات الحجازية والحج ومشاعرة الدينية*. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ.

[٤١] عنقاوي، سامي محسن والجوهري، أسامة محمد نور. "زمزم شفا من كل سقم." *البناء*، السنة الخامسة، ص.ص. ٧٢-٧٧. العدد ٢٩-٣٠، رمضان - ذو الحجة ١٤٠٦هـ.

[٤٢] السيرياني، محمد محمود، مكة المكرمة : دراسة في تطور النمو الحضري، قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، نشرة ٨٧، ١٤٠٦هـ

[٤٣] الغامدي، عبد العزيز بن صقر. *السرياني*. محمد محمود، مرز، معراج نواب، كيني، زهير محمد جميل. مكة المكرمة: مطابع الصفا، ١٤٠٥هـ.

[٤٤] الأنصاري، عبد القدوس. *آثار المدينة المنورة*. المدينة المنورة: المكتبة العلمية التجارية، ١٤٠٦هـ.

[٤٥] الحصين، محمد بن عبد الرحمن. خصائص البيئة العمرانية للأحواش بالمدينة المنورة. *مجلة جامعة الملك سعود, العمارة والتخطيط*, المجلد الرابع، ١٤١٢هـ، ص.ص ٣٧ - ٩١.

The Two Holly Mosques: An Introduction to their Growth and Expansion and their Influence on their Urban Context Through History

Mohammed Eben Abdullah Eben Saleh

Department of Architecture and Building Sciences
College of Architecture and Planning, King Saud University,
Riyadh, Kingdom of Saudi Arabia

Abstract: Allah The All Mighty, has honored the Arab Peninsula by founding the two Holly Mosques in it. In this bare and desert land, Prophet Ibrahim (PBUH) and his son Ismail (PBUH) laid the foundation of the Holly Ka'ba in Makkah as the Qibla for all Muslims. In Al-Madinah Prophet Mohammed (PBUH) built his Mosque, from which the Islamic teachings and guidance have spread to all parts of the world. In Jerusalem , the Aqsa Mosque together with the two Holly Mosques in Makkah and Al-Madinah form the most sacred places for all Muslims, and so deserved special attention and care. The Prophet (PBUH) and his Caliphs after him had set the principles for caring after both the Holly Mosques in addition to the other Mosques, regarding their management and expansion.

The objectives of this article is to open new avenues and horizons for the study of the architecture of the Two Holly Mosques. Also to prepare a detailed scientific data base from original sources clearly documented for reference to be used by researches interested in this field.